رواية

ام سترين

من قرية ام حجل ... الي بارقة امل



بقلم

محمد بشير محمد - ودالقبائل

الفهرس

✦صفحات افتتاحية

✦الفصول الروائية

✦الملحقات

الإهداء:

إلى أمّي التي علّمتني أن الستر دعاءٌ قبل أن يكون ثوبًا،
وأن الساقية لا تبدأ من الماء، بل من الخاطر الراضي...

إلى أبي الذي غرس فينا محبة الأرض، وأورثنا الطمأنينة قبل المحصول...

إلى قرية "أم حجل" —— حيث نشأت الحكاية، واشتدّ جذع القلب،
وحيث اكتشفنا أن الطين ليس صدأ، بل ذاكرةٌ تعيدنا إلى الله في كل قطرة مطر...

إلى أم سترين ، ستيرة بنت النور ، التي سترت الناس، ولم تكشف سرَّها
إلا حين نادتها الساقية باسمها من حجرٍ قديم...

إلى كل غريب، حمل معه تراب الوطن، وترك خلفه ظلَّ الساقية...
حتى إذا جفّت الأرض، ظلّت الذكرى تسقيه في المنام.

وإلى الساقية... التي لم تتوقف، بل انتظرتنا حتى نعود.

ود القبائل
2025

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)

(سورة الأنبياء، الآية 30)

يا ساقية العمر... امْشي بسلام، فالذي يحيا بالماء يحيا بالستر، والذي يسقي الأرض، يسقي الروح، ومن يحفظ الينبوع... يورِث الطريق للناس نورًا.

ود القبائل

✨مقدمة الرواية

ليس كلُّ رواية تُكتب لتُقرأ، ففي بعضها تُقام حياة وتستيقظ أمَّة كانت ساكنة في الوجدان.

وهذه الصفحات التي بين يديك يا قارئ الخير، ليست سردًا يُساق بطلقة قلم فحسب، بل هي امتدادٌ لنبضِ أرضٍ ظلَّت تروي أهلها بالخير والشجن، ثم شاءت الأقدار أن تُساق الحكاية خارج حدودها... لتبحث عن صوتٍ، وعن شاهدٍ، وعن قلبٍ يُكمل الدائرة.

ولدت هذه الرواية من ''أم حجل'' قريةٌ صغيرة على تراب الجزيرة في السودان حيث تعلم الناسُ أن الساقية ليست مجرد خشبةٍ تدور لتسقي الحقول، بل هي حكمة حياةٍ تفيض بصبرٍ، وسترٍ، وماءٍ يلمع في عين كان تتعلَّم معنى الانتظار.

بدأت الحكاية حين خرج البطل ''تاي الله'' بحثًا عن مستقبلٍ لا يعرف إن كان سيعيده إلى جذوره أم سيمدّه نحو آفاقٍ أخرى.

لكن الذي لم يكن في الحسبان أنَّ الغربة ستفتح بابًا جديدًا بابًا لا يُغلق، يُنبت فيه الزرع في أرض دون سواقي، ويُكتب فيه الشعر على صوت الريح، ويكبر فيه القلب على ضفّتين: ضفة الوطن، وضفة الوجود في العالم.

هذه رواية حياة، بقدر ما هي مشروع، وبقدر ما هي مرآة تربط بين الحكاية والوثيقة، بين النص والتربة، بين جيلٍ عاش، وجيلٍ ينتظر منّا صوته.

وما كتبت ''السِّرة'' بطلة هذه الرواية إلا صدى لامرأةٍ أسموها :**أم سترين،**

تلك التي سترت الوجود بصدقها، وعلّمت الناس أن الستر فضيلة الجمال المخبوء، وأن الحكمة لا تُلقَى إلا لمن صبر ولمن حفظ العهد.

وبين أم حجل والشارقة، بين الأرض والمكتب، بين الساقية الأولى وساقية القلب... تُروى هذه الحكاية.
والله ما كتب فيها شيء إلّا وسُقي بدمعة، وما كُتِم فيها فقر إلا وسترته روح أم سترين.

فمرحبًا بك في هذا السفر سفر الروح قبل الحبر سفر الموتى الذين ينطقون بالحياة فينا، وسفر الغربة حين تكبر لتصبح وطنًا من حبرٍ وترابٍ وقلبٍ واحد.

محمد بشير محمد مصطفى (ود القبائل)
الشارقة – أم حجل

2021

عن المؤلف

محمد بشير محمد مصطفى، المعروف أدبيًا باسم **ود القبائل**، كاتبٌ وإعلامي سوداني، من أبناء قرية *عِجان الحلاوين* – محلية الحصاحيصا – ولاية الجزيرة (السودان)، خريج جامعة الخرطوم، كلية الآداب، قسم اللغة العربية والإعلام.

اشتغل بالكتابة الصحفية وصناعة المحتوى الثقافي والإعلام المجتمعي، وله مشاركات أدبية وفكرية في صحف ومؤسسات داخل السودان وخارجه. يقيم منذ العام 2018 في دولة الإمارات العربية المتحدة، ويعمل في المجال الإنساني والإعلامي، وله إسهامات تطوعية بالتعاون مع هيئة الهلال الأحمر الإماراتي.

يُعرف ود القبائل بعنايته بالهوية الريفية والحكي الشفاهي، وتوثيق الذاكرة السودانية الثقافية والاجتماعية، وهو صاحب مؤلفات ومشروعات قيد الإصدار، من بينها:

» ✦فتح البصيرة ما بين التلذذ والحيرة«

» ✦سِفر القلب ما بين الوجد والفقد«

» ✦نجمة الأسحار» — رواية فانتازيا معاصرة

» ✦تجليات القلب العاشق» —كتاب صوفي-إنساني بطابع تأملي

وهذه الرواية –*أم سترين* – *من قرية أم حجل إلى بارقة أمل* «– تأتي كأول عمل سردي ممتد يجمع بين حكمة الريف السوداني وتجربة الغربة الحديثة، في صيغة مشروع روائي توثيقي وأدبي حيّ، يتجاوز حدود الحكي ليصبح جسرًا بين الذاكرة والتنمية والكتابة.

ود القبائل
2025

كلمة الكاتب

ليست هذه الرواية من نسج الخيال وحده، وليست يوميات عابرة من دفتر الغربة.
إنما هي جسرٌ ممتد بين أرضٍ تُنادي، وصوتٍ يتذكّر، وذاكرةٍ تختبر الإنسان حين يخرج من تراب القرية إلى ضجيج العالم... فيكتشف أن الحنين ليس ضعفًا، بل بصيرة، وأن العودة ليست تكرارا، بل كتابة جديدة لخطوات قديمة.

كتبتُ – *أم سترين*– وأنا أتنقّل ما بين أم حجل والشارقة، وما بين دهشة الريف وواقعية المدينة.
كتبتها وقلبي يجرّ خلفه ظل الساقية الأولى، وحنين أمي، وصوت جدّات كنّ ينسجن الحكمة على حوافّ الحكايات، في الليل، تحت ضوء السراج الضعيف...
وكتبتها وأنا أعلم أنّ كل قصة لا تسقي الروح، لا تستحق أن تُروى، وكل معنى لا يخرج من الستر، لا يثمر، مهما بدا بليغًا.

ولربما هذه الرواية ليست لي وحدي ..

بل لكم أنتم.

لمن هاجر وهو يحمل في صدره غيمة لم تُمطر بعد، ولمن عاد وفي يده حفنة تراب تقول: «هذا مكاني وإن تغيّر الزمان ، ولمن بقي... يسقي الأرض، والذاكرة، والقصيدة.

فإن كنت من هؤلاء الثلاثة، فاعلم أنّ هذه الصفحات لم تُكتب لتُقرأ فقط... بل لتجري كالساقية في داخلك.
ولتعرف عند آخر سطر، أنّك كنتَ جزءًا من الحكاية، حتى لو لم تقابل يومًا تاي الله، أو السِّرة، أو الزين – فكلكم صوتٌ من أصوات «أم سترين»، التي تحفظ الستر قبل البيت، وتُنبت الخير قبل الزرع.

فمرحبًا بكم في هذه الساقية...
ساقية من ماء وقلب، ومن حكاية وحنين، ومن سفرٍ... يعود كلما اكتملت فيه خطوتان: خطوة نحو الغربة، وأخرى نحو الله.

ود القبائل

محمد بشير محمد مصطفى

الشارقة – أم حجل

2025

الفصل الأول

من قرية أم حجل... تبدأ الحكاية:

كانت شمس الصباح تنهض ببطء على أطراف القرية، فيما تتناثر أشعة الفجر فوق الحواشات المروية التي لم تستيقظ بعد من تعب الليل.
في قرية **أم حجل** بولاية الجزيرة، كانت الحياة تبدأ بصوت المؤذن من مسجد الخلوة، حيث يقف **الشيخ الطاهر**، بجلابيته البيضاء وطاقيته الخضراء، يتلو الأذان بخشوع، فتردده جدران المسجد الطيني القديمة، وكأنها تحفظ صدى الذكر جيلاً بعد جيل.

كان أهل القرية قد اعتادوا هذا الصوت، فهو جزء من دورة يومهم، تمامًا مثل رائحة اللبن الطازج على النار، أو خطوات الأطفال في طريقهم للخلوة لتحفيظ القرآن الكريم.

في بيت الناظر **فضل السيد**، الرجل الذي ورث النظارة أبًا عن جد، بدأت الحاجة **عِشّة** —زوجته الثانية — إشعال الكانون، ووضع اللبن على النار لإعداد الشاي باللبن، وهي تردد كلمات ترحيب واستبشار بينما ترتّب الأكواب على الصينية النحاسية.

قالت وهي ترفع غطاء الحلة:

«السِّرة... تعالي يا بتي... الشاي جاهز... ودّيه لي أبوك وشيخ الطاهر في الديوان»

جاء صوت السِّرة رقيقًا من داخل الغُرفة:

«سمح يا يمّة... جاية»

كانت السِّرة – ابنة الناظر من زوجته الراحلة **أم سترين** —فتاة في عمر الخامسة عشر، رقيقة المحيا، صافية الملامح، ترتدي الحجل في رجلها اليمنى مثل جدّتها، وتفيض وجهًا وحياءً على عادة بنات الريف.

خرجت وهي تحمل الصينية، وارتفع رنين الأكواب على صينية النحاس، كأنه موسيقى صباحية لا تنفصل عن حياة القرية.
كانت خطواتها خفيفة، تمشي بطمأنينة نحو ديوان والدها، ممسكة بالبراد وصحن الشعيرية الممزوجة بحلو اللبن.

دخلت بخفر، وقالت:

«السلام عليكم يا أبوي... وعليكم السلام يا شيخ الطاهر... شاي اللبن جاهز»...

رفع الشيخ الطاهر بصره إليها، وقد خطّ الزمن في وجهه مسارات الرحمة والعلم، ثم قال مبتسمًا:

«وعليكم السلام يا المبروكة... الله يزيدك نور وستر»...

أما الناظر، فقد رفع رأسه من أوراق أمامه، وابتسم بحنان:

«بارك الله فيكِ يا السِّرة... الله يجعل دربك عامر بالفرح.»...

وضعت السِّرة الصينية على التربيزة الخشبية الصغيرة، ثم انسحبت في هدوء، والرائحة الدافئة لشاي اللبن قد ملأت أرجاءِ الديوان.

مجلس الناظر:

كان الناظر **فضل السيد** يجلس في صدر الديوان، على عنقريب متين مصنوع من الخشب والحبال، وإلى جانبه شيخ الطاهر.
يتحدّثان في أمور القرية: الزراعة، توزيع المياه، مشاكل الموسم، وحال الناس في ظل التحوّلات القادمة.

قال الشيخ الطاهر بعد رشفته الأولى:

«يا سعادة الناظر ... الليلة الناس ما نايمة... كل زول بيسأل عن الموسم... والمطر متأخر... والبهائم عطشانة... والناس دايرة ترتب للزراعة».

رد الناظر وهو ينظر في الفراغ:

«عينك صحيحة يا شيخ... الزراعة أساس الحياة في أم حجل... وإن لما المطر، ما بكون عندنا قِطاف، ولا موسم، ولا خير»...

بعد لحظة صمت، أردف بصوت يملأه الشجن:

«والله يا شيخ... العمر دا مرّ بسرعة... الواحد داير لي ولد في البيت يعينه، وزول في الخلوة يقيف على أمور الدين... السِّرة كبرت... ومحتاجة لي سند... ووالدتها أم سترين رحمة الله عليها... كانت ست بيت، وأم خير.»...

تنهد الشيخ الطاهر وقال مواسيًا:

«الله يرحمها ويجعل قبرها روضة من رياض الجنة... وولد المرحوم أخوك أخبارهم شنو... سمعت إن تاي الله وسراج نازلين من المناقل بعد بكرة.»...

أشرق وجه الناظر، وقال بحماسٍ مكتوم:

اللهم بارك... في تاي الله دا وعافيية... مما تشوفوا تراه ماشي بأدب وبوقار شديد ... زول شهم، ورزقو واسع.

زيارة حاج مختار

نهض الناظر من مجلسه، وقال لشيخ الطاهر:

يلا نمشي نشوف حاج مختار... وقعتو أمس من فوق الحمار ما خفيفة... الواجب واجب.

خرجا معًا في صباح هادئ، والنسيم يتهادى على وجوههما، يعبقان برائحة الأرض المبتلة والريحان المزروع قرب البيوت.
مرت بهما نسوة عند متوجهات الي البئر لينشلن الماء بالدلو ، ورمح

أطفال على أطراف الترعة يصطادون الضفادع الصغيرة، في مشهد بسيط لكنه مفعم بالحياة.

عند بيت حاج مختار – بيت مبني من الطوب اللبن، له راكوبة واسعة — وجدوا التهامي، ابنه، يستقبلهم عند الباب.

قال التهامي:

يا مرحب بيكم، اتفضلوا... البيت بيتكم... أبوي جوّا، منتظركم زي نور الشمس.

دخل الناظر، وتقدّم إلى العنقريب حيث يرقد حاج مختار مرتديًا الجلابية البيضاء، وملفوف اليد بجبيرة من عيدان القنا.

قال الناظر بتحنان:

حمد الله على السلامة يا حاج مختار... الله يعطيك العافية؟.

رفع حاج مختار رأسه بصعوبة، وقال مبتسمًا:

يا مرحب بيك يا سعادة الناظر ... والله وقعت وقعة خلت جسمي زي السوس... لكن رضيت... المؤمن مصاب.

ردّ الشيخ الطاهر وهو يربّت على كتفه:

ربنا يشفيك ويقومك بالسلامة... الليلة بعد المغرب نقراء السبع ... نوقرأ الفاتحة ويس والمولد البرزنجي ونوكل امرك على الله ابتسم حاج مختار وقال:

جزاكم الله خير... أنتو حضرة وخير ووقفة رجال.

وفي تلك اللحظة، دخلت **حاجة أمّنة** – زوجته – تحمل قدحًا كبيرًا من شوربة الحمام، وقالت للسِّرة التي كانت قد تبعتها:

أدّي الشوربة للناظر وأمشي يا بتي... قولي لي أمك عشة تشيّل ليها باقي اللبن... دا واجب.

ابتسم الناظر وقال:

الله يبارك فيك يا حاجة أمّنة... زادكم الله بسطة في الرزق والستر.

عودة «تاي الله» و«سراج» إلى القرية

في مساء اليوم التالي، وبينما كان أهل القرية يستعدّون لصلاة المغرب، تناهى إلى مسامع الناس صوت محرّك عربة قادمة عبر الطريق الترابي الممتد من جهة المناقل.
اقترب الصوت أكثر، وعلا خلاله صوت الزغاريد، فخرجت النسوة من البيوت، ووقف الصبيان في الطرقات ينظرون بفضول.

كانت شاحنة صغيرة مُحمّلة بأغراض كثيرة، وفي مقدّمتها يقف شابان يلوّحان بأيديهم بسعادة لمن ينتظرون في طرف الحِلّة.

قال أحد الصبيان وهو يقفز في مكانه:

دا تاي الله وسراج... رجعوا.!...

انطلق الخبر سريعًا، وخرج الناظر من الديوان بلهفة، يمسح دمعة تحثّرت في زاوية العين، فهذان اولاد أخيه الراحل، وكان قد اشتاق إليهما شوق الأب لأبنائه.

وصلت الشاحنة، وترجّل منها **تاي الله**، شابٌ طويل القامة، أسمر البشرة، متواضع المظهر، يحمل ابتسامة واسعة تسبق حديثه، وخطاه تسبق قلبه المحبّ.

تقدّم الناظر نحوه، واحتضنه بشوق:

احمد لله على السلامة يا ولدي تاي الله... نورت الدار...

عانقه تاي الله وقال بصوت متهدّج:

نحمد الله على لقياك يا أبوي... فقدنا اللمة... وقلنا نرجع لي ناسنا....

وتقدّم منه **سراج**، الشقيق الأصغر، لم يبلغ بعد الثلاثين، لكنه ورث عن أبيه لسانًا طيبًا، وقلبًا كبيرًا، فسلّم على عمّه وقبل رأسه، وهو يقول:

رضى الله عليك، وعلى البلد وأهلها... جينا نخدم، ونبرد الأراضي دي من الغُربة....

التفّ الناس حولهم، وعلت الأصوات بالترحاب:

حبابكم عشرة بلا كشرة... دا يوم عيد....

رفعت حاجة **عِشّة** صوتها من داخل البيت:

يا السِّرة... شيّلي الشاي للضيوف... الليلة البيت بيتهم.

أخذت السِّرة الصينية الذهبية، وقد وضعت فيها أكواب الشاي باللبن ورائحة الهبهان تعبق منها، وسارت نحو الديوان بخجل، بينما كان تاي الله يراقبها بإعجاب مكتوم.

توقّف الزمن لحظة... نظرت إليه السِّرة... خفضت بصرها... فابتسم تاي الله، ووقفت الحياة على رؤوس أصابعها.

💬حوار في المساء:

بعد أن هدأ الجمع، واجتمع الجميع في الديوان، جلس الناظر على عنقريبه، وبدأ حديثه مع تاي الله وعموم الحضور:

دايركم تكونوا معانا في الحِلّة من بكرة... الزراعة داخلة، والمسيد محتاج لي وقفة... والبيت محتاج رجال....

رد تاي الله وهو يضع يده على صدره:

يا أبوي... نحن جينا لي دا بالذات... الأرض دي أرضنا... والناس ديل أهلنا... وإنت عمّنا الباقي من أبونا.

سراج وهو يحك رأسه بخجل:

والحاشي جايبنو معانا في العربة... قلت نعمل ليكم عشاء الليلة.

ضحك الجميع، وقال حاج الماحي ممازحًا:

الحاشي دا نحن منتظرنوا بفراق الصبر ... أصلو عشا الشياب ، ما ببرد غير باللحم.!...

رد تاي الله:

كلو لله، والنية خالصة... ونرجو البركة وتيسير الحال لي أهل البلد.

🎼 ليلة الودّ والترحاب

ما إن اقترب الليل حتى اكتمل المشهد.
نصبت النساء صيوانًا أمام بيت الناظر، وأُشعلت الفوانيس، وجاءت الدلوكة والربابة والنوبات، وأصوات المدّاح بدأت تتعالى:

هو الدائم... الله الدائم...
يا حي يا قيوم....

وغنّت الفتيات بمرافقة الدلوكة:

مبروك عليك بيت الحلال يا السِرّة...
ومبروك عليك زين الرجال يا تاي الله

وتعلو الزغاريد من خلف الأنفاس:

»أيّووووويييي... أيوووويي«...

وفي إحدى الزوايا، حمل تاي الله عصاه، وتبادل نظرات خجولة مع السِّرة، التي جلست برفقة بنات الحِلّة خلف ستارة ملوّنة، مطرزة بخيوط الودّ والحياء.

ذلك الليل... كان البداية.

📖 الفصل الثاني

المسيد... منارة النور وبذرة التحوّل

مطلع الفصل: **صباحٌ آخر في قرية أم حجل، لكن هذه المرّة ليس كغيره... فقد أصبحت القرية تستيقظ على أصوات جديدة وأمل يتشكّل**

كان الفجر قد بسط بياضه على أطراف القرية، وبدأت الشمس تلامس سقوف البيوت الطينية التي تراكم عليها الزمن دون أن يسقط حبها من قلوب أهلها. في الخلوة، كان الشيخ الطاهر جالسًا على التبروقة، يفتح المصحف الشريف بصوت خاشع :

«ألم... ذلك الكتاب لا ريب فيه... هدى للمتقين»...

أحاط به الصبية من كل جانب، وفي مقدمتهم جاء **تاي الله**، متأدب الخطى، وقد جلس إلى جوار الأطفال كتلميذ جديد، وهو الرجل الذي أكمل الثلاثين من عمره.

نظر إليه الشيخ الطاهر وقال:

«ما شاء الله... اتفضل يا تاي الله... الفاتحة مع الأولاد... دي بداية مباركة... وأهل القرآن ما بتضيق بيهم الدنيا.»...

ابتسم تاي الله وقال وهو يمدّ يده للمصحف:

«بارك الله فيك يا شيخ الطاهر... دا نور ودرب، وإن شاء الله ربي يكتب لينا خطوة في الخير»...

وبينما كان يردد الآيات مع لحن التلاوة، دخل **سراج** إلى الخلوة يحمل قربة الماء، وضعها على الأرض، وقال:

«يا شيخ... جبت ليكم موية من الحفير... لعيال الخلوة... والعمال جايين بنضفو الترع بعد الظهر.»...

رد الشيخ الطاهر بامتنان:

«جزاك الله خير... عيالنا عايزين يشمّو ريحة الطين والقرآن في ساعة واحده.»...

حركة الزراعة والمسيد

في ذلك اليوم، تحرّكت الحياة في القرية نحو نقطة فاصلة: الزراعة باتت قريبة، والموسم يلوح في الأفق...
جاء **المفتش الزراعي** ومعه الباشكاتب و«المخزنجي» وأمين التموين المعروف عند الناس بـ «الكارث»، تجمعوا كلهم في ديوان الناظر.

قال المفتش وهو ينظر في خريطة المشروع:

يا سيادة الناظر ... لازم نستعد قبل ما يهجم الخريف... الموية جاهزة في الكنار والساقية... وكراكات المشروع بتبدأ الشغل بكرة....

أشار الناظر برأسه، ثم قال بصوت يحمل الوقار والحرص:

سامعين... واولاد البلد واقفين على الزراعة من الفجر... والتراكتورات شفناها ماشّة من الصباح... بركة فيكم وفي شغلكم.

بينما كان الجميع يتحادث في الديوان، كانت الحاجة **عِشّة** قد أرسلت السِّرة بصينية الشاي وأكواب الشعيرية، فدخلت بكل هدوء، وضعتها على الطاولة الصغيرة، ثم خرجت بخطوات محتشمة.

حين رفعت رأسها في طريق العودة، التقت بعيني تاي الله في الباب، فغضّت بصرها هاربة، لكنه ظلّ واقفًا كأن اللحظة شدّته إليها، كأن نبضًا خفيًا بينهما ينمو.

📜 تقليد أصيل... وسيرة تتجدّد

بعد صلاة الظهر، اجتمع المزارعون أمام «دكان الكارث»، حيث يتم توزيع المونة الزراعية: الخيش، البذور، والجاز للوابورات، وكل ما تحتاجه الأرض من مقوّمات الحياة.

وقف الكارث خلف ركن البيع، وقد حمل دفتره الأحمر، ينادي بالاسم:

موسى ولد حاج إدريس... خيش كيسين وفاتورة لابُوعشرين....

تاي الله ولد المرحوم حسن... العيش وقطن اللقيط....

وحين استلم تاي الله حصته، قال للكارث بصوت ممزوج بالعرفان:

مشكور يا الكارث... المعروف دا ما بننساه... والكلمة الطيبة رزق.

رد الكارث وهو يلفّ دفتره:

الرجالة في الكلام قبل الشغل... وراكض الربح ما بيعمر الزول... خليك زي ما انت.

ابتسم تاي الله وغادر بخطوات واثقة، وهو يعلم في قلبه: أن رحلة بناء شامل للقرية بدأت تخطو نحو الضوء.

المسيد... منارة النور وبذرة التحوّل

دور الخلوة في حياة القرية

كان المسيد (الخلوة) في **أم حجل** أكثر من مجرد مكان لتحفيظ القرآن، بل كان مركزًا للروح والتربية، ومجلسًا يجتمع فيه أهل القرية كل مساء بعد

المغرب لتدارس القرآن ومدائح السادة الصوفية، وتبادل الأحاديث الهادئة التي تفيض حكمةً وطمأنينة.

وفي إحدى الأمسيات، جلس الشيخ الطاهر في حضرة التلاميذ، وقد أحاط به عدد من الرجال من بينهم الناظر فضل السيد، وحاج مختار بعد شفائه، والكارث، وبعض الشباب، وكانت السِّرة تنظر من خلف الراكوبة، تسترق السمع إلى صوت الدعاء والتلاوة.

يا حي يا قيوم... نور قلوبنا بنورك...وأغننا بفضلك عمّن سواك.

كان صوت الشيخ الطاهر يحمل الدعاء بإخلاص، فتتردد خلفه الأصوات برهبةٍ في المكان، بينما تضج القلوب بالسكينة.

وفي ذلك المشهد، وقف **تاي الله** في الصفّ الأول، حاملًا مصحفًا مفتوحًا، يقرأ بتجويد متواضع لكنه خاشع :

«إياك نعبد وإياك نستعين.»...

وبينما هو منكبٌّ على التلاوة، رفعت السِّرة عينيها نحوه، فتقابلت النظرات للحظة سريعة، وارتجف قلبها بارتعاش لم تفهمه تمامًا، لكنّه بدا كسؤال بدأ ينمو في داخلها:

«هل هو قدَر الله... أم نور الألفة؟.»

زراعة القطن... وأول امتحان للتعاون

وبعد أيام قليلة، اكتمل توزيع الأراضي على المزارعين ، واستعد الجميع لزراعة القطن، فالأرض كانت مهيأة، والعمال جهزوا البذور والماء، ولم يتبقّ إلا بداية العمل.

وقف الناظر في الديوان يخاطب أهل القرية:

يا رجال أم حجل... بكرة الفجر بنبدأ الحصاد... القطن دا رزق جماعة، وما بنجح إلا بي وحدة الناس... وتاي الله وسراج واقفين معاكم....

أومأ الحضور بالموافقة، وتقدم تاي الله بخطوة واثقة وقال:

الله يكبر قدركم يا عمّي... نحنا واقفين قدّامكم... وعارفين إنو البلد دي محتاجة ليدٍ تتسند... والخير في الجماعة.

بعد أن انتهى اللقاء، تحرّكت القلوب نحو عمل جماعي، كان بمثابة امتحان أول لأبناء القرية، خصوصًا الجدد مثل تاي الله، الذي سيثبت حضوره بين الناس لأول مرة بعد عودته.

🍂حكاية على طرف الحوش:

ذات مساء، وبينما النسوة مشغولات بإعداد الخبيز والكعك ، جلست **حاجة عِشّة** في حوش البيت تخاطب ابنة زوجها السِّرة:

يا بتي... الولدين ديل من دم زول كريم... أبُوهم كان سند للبلد... وتاي الله دا ما بتخطيهو العين... شوفتي كيف وقف مع أبوك في الديوان؟.

أخفضت السِّرة رأسها بحياء وقالت:

ربنا يقدّر الخير يا يمّة... الواحد ما بقدر يقول حاجة... لكن القلب... الله بيخلّيه شاهد.

ابتسمت الحاجة عِشّة وربّتت على كتفها وقالت:

القلوب سكن الله... لكن عليك بالستر والصبر... البنيات ديل زينتهم الخُلق قبل الجمال.

سكتت السِّرة، لكن قلبها كان يحكي أكثر مما تستطيع كلماتها قوله.

📌 نهاية الفصل الثاني – وبداية اشتعال القصة

في الفجر التالي، تجمع أهل أم حجل في الحقل الكبير خلف الساقية.
كان تاي الله أول من حمل الفأس، وغرسه في الأرض، فتبعه الناس بقلوبٍ موحّدة وأيادٍ واحدة.

كان ذلك المشهد كأنه إعلان لبداية جديدة في حياة القرية...
لكنّ خيطًا من الغبار في الأفق، ونظرة حيرى في عيني «الزين» ابن مختار، كانت تُنذر بأن شيئًا غير معهود على وشك أن يحدث.

📖الفصل الثالث

حين بدأت السحب تتلبّد... أول اختبار

مطلع الفصل: رغم صفاء الصباح وهمة الحقول، كانت هناك سحابة صغيرة في صدر كل واحد منهم... لكن لم يدر أحد أنها ستكبر.

كانت شمس الصباح قد ارتفعت فوق حقل القطن، حيث بدأ الأهالي برصّ خطوط الزراعة وإنزال البذرة الأولى، وانطلقت أذرع الرجال تتبادل "الطورية " و"الفأس" في عمل جماعي تُسمَع فيه ضحكات بين الجهد، وتراتيل خفيفة من آيات الحفظ وأهازيج العمل:

يا أرض زيدي محصول... وبارك يا رب... ما في زول مقطوع.

كان **تاي الله** في مقدمة الصف، يحفر بجدّ وهو يهلّل في سره.
غير بعيد منه كان **سراج** يدندن بصوت منخفض، يشجع الأطفال ويمازحهم. وكان بينهم رجل يُدعى **الزين**، بدا عليه شرود مفاجئ، وهو ينظر إلى تاي الله بنظرات يصعب فكّ شفرتها.

ثم اقترب الزين من حاج مختار، وقال بصوت خافت:

والله يا حاج... القطن دا عايز ناس قلوبهم مثل الأرض... والناس الجاية من برّه... زي تاي الله وسراج ... ما بتمشي معاهم الدنيا دي ساي.

رد حاج مختار وهو يسوّي عمامته:

بالله عليك يا الزين... ما تقول كِلام بجيب فتنة... تاي الله دا ولد أخو الناظر... وجاي يخدم، ونحن دارين نكسب الجماعة.

لكن الزين ردّ بعينين ضيّقتين:

الكلام فوق الناس، يا حاج... القروش والوجاهة ما بتسوّى لي الزول مكان، ولا بتحل عقدة في القلب.

تحرّك الزين بخطوات متثاقلة، وهو لا يدري أن كلماته تلك، كانت بداية أول شرخ خفي سيظهر في قلب الحكاية.

🌾مشهد المساء في بيت الناظر

في تلك الليلة، جلس الناظر في حوش البيت يتأمل القمر العالي، والسِرّة جالسة على "البرش" قدامه، تعجن "الدكوة" وتغنّي بصوت خافت:

يا ليل طال... يا ليل... ما همّك الوجع العليل.

دخل **تاي الله** بهدوء ومعه سراج، وجلسا قرب العنقريب، فتقدمت السِرّة لتضع القدح أمامهما، ولكن تعثّرت قليلاً وهي تضع الصينية، فتماسكت بخجل، ورفعت عينيها في حياء.

رفع الناظر حاجبيه، ثم قال:

السِرّة... خليكي هنا شوية... لازم أقول كلمة قدام الجماعة.

جلست في طرف المكان، بينما تنحنح الناظر، وقال بصوت يفيض وقارًا ودفئًا:

يا أولادي... الزراعة بدت، والخير ظاهر، والواجب على الجيل الفوق دا... يسلم الرَّاية للجيل التحت... يا تاي الله وسراج... الدايركم دا قومة الرجال... وستر النساء... وعمود البيوت.

أومأ الشابان بإجلال، فقال سراج:

رضى الله عليك يا عمّي... نِزر واحد نعملو، وما نقصر.

تابع الناظر، وهو ينقل بصره بين الاثنين:

وما بيننا إلا كلمة الله... الناس حتتكلم كتير، والزين دا زول لسانو حار... لكن دايركم ما تلتفتوا... القطن محتاج يد صابرة أول، وقلوب عامرة بالنية.

⚡بداية الانقسام...

بينما الناس كانت تنصرف إلى بيوتها ذلك الليل، جلس حاج مختار وحده تحت ضوء السراج، يفكّر في كلمات "الزين"، وكأن صوتًا بعيدًا يعيد عليه:

الناس الجايين من برّه... ما بيعرفوا أرضنا... ولو قدروا عليها، ما بكون في نصيب لينا.

لكن قلبه سرعان ما ناوله الحقيقة:

العداوة ما بتبني بيت... والنية ما بتقرّب باب... وأم حجل مرقت مننا ناس نضيفين، ما بتهز فيهم كلمة الريح.

🐪 لقاء غير مُرتّب

في الفجر التالي، وبينما كانت السِّرة تأخذ ماء الوضوء خلف البيت، جاء تاي الله يسقي "الحمار " من البئر، فالتقيا على غير موعد.

توقفت السِّرة فجأة، وغضّت بصرها، فقال تاي الله وهو يقدّم الماء:

عليّ الحِلَف يا السِّرة... الليلة الفجر كان نور فوق العادة... كأنو أعلن شي من السما.

ردّت بصوت منخفض:

يا تاي الله ... نور الفجر ما بطلع للناس بس... يمكن ربنا فاتح في قلب زول دعوة مستجابة.

ابتسم تاي الله، ثم أسرّ لها:

والله قلبي كان بدّعي... وأحسّ بالدعوة جاية من قريب.

ابتسمت بخجل، ثم أشارت بيدها بامتنان، وغادرت بخطوات تهتز بارتباك فطري .

📖 الفصل الرابع

حادثة في الحقل... والصوت الذي أثار الريح:

مطلع الفصل: كانت الأيام تمضي بخير منذ بداية الموسم، لكن الريح لا تهدأ إلا إذا حملت سحابة معها، ولا يُختبر معدن الرجال إلا حين تُقلب الموازين.

كانت أشعة الشمس تلامس حافة الحقل حين تحرك رجال أم حجل مبكراً، يواصلون عملهم في زراعة القطن، وشيخ الطاهر يمر بينهم بالدعاء، يذكّرهم بِرَبِّ الأرض وخالق الرزق:

واشكروا نعمة الله... فإنها إن شُكرت دامت.

كان **تاي الله** مشغولًا بنقل البذور على ظهر حماره، يعاون الصبية في رسم خطوط الزراعة، بينما كان **الزين** واقفًا تحت ظل النيم، يبدو مشغولًا بالمراقبة أكثر من العمل.

لم يلحظ أحد ما كان في نية الزين، إلى أن سمع بعضهم صوته يعلو وهو يتحدث مع رجل غريب، يرتدي جلبابًا مكويًا يحمل حقيبة جلدية:

دا تاي الله... ولد أخ المرحوم... جاي من برّة عايز يقلب الحِلّة... يقول بيساعد... لكن القروش بتجيب الهوا... ومرة واحدة تلقاهو مالك أرضك وبيت جدودك!.

اشتد الكلام في أذن الرجل الغريب، الذي بدا أنه من "المكتب" – أحد موظفي الإدارة – فاقترب بفظاظة نحو تاي الله، وقال بصوت لا يخلو من السخرية:

أها يا ولد حسن... عايز تجرّف بيت العُمدة وتقلّع الناس من رزقا؟.

رفع تاي الله رأسه، وقف مستقيمًا، وقال بهدوء غير مصطنع:

أنا جيت بخير... والأرض دي بتاعة الناس... ما بتاعة زول....

ضحك الموظف بسخرية:

تحلف؟ ولا مهرج؟ الزين قال كلام بتفسر... وإنت نازل زي المدافع... منو شايلك؟.

هنا تدخّل **حاج مختار**، وصاح بقوة:

يا ولد المكتب... الكلام دا ما بيليق... ولد أخ الناظر ما جا باطل... وما في زول يشيل حق زول... نحن رجال بنعرف الأصول.

بدأ الجمع يتجمّع، وصوت الزين يتعالى بالهمس:

أها... شفتو؟ الدنيا بقت لعب... دايرين يقلبوا أم حجل قُلب.

كانت تلك الشرارة التي أطلقت نقاشًا طويلًا في الحقل، بين من أيّد تاي الله ومن انجرف وراء شكوك الزين.

عودة مضطربة إلى الديوان

عاد تاي الله إلى بيت الناظر قبل المغرب، خطواته ثقيلة، صدره مشحونٌ بهواءٍ مقلق.
حين دخل الديوان، كان الناظر جالسًا يذكر من سبحة طويلة، فوقف تاي الله أمامه دون كلام.

رفع الناظر بصره، وقال:

مالك؟ شكلك متقلّب، والأرض ما بتكسر خاطر زول.

أخذ تاي الله نفسًا عميقًا، ثم قال بصوت مبحوح:

يا عمّي... الدنيا ماشة بالمقلوب... والزول البينتّظر الخير، بيضحك فيه الزمان... الزين أشاع كلام في الحواشة ... وكاد فتنة تنشب بين الناس.

عقد الناظر حاجبيه، وقال بهدوء:

والله من زمان شفت الغيرة في عيون الزين... لكن ما كنت أتوقع تجي بالطريقة دي... اسمع يا ولدي... الفتن بتبدأ بالكلام، وتنتهي بخراب النيّة.

طال الصمت بينهما... ثم دخلت الحاجة عِشّة بالعشاء، وفي عينيها نظرة تُخفي قلق الأم عن الأبناء.

💔لقاء غير مكتمل... ودمعة لم تُسكب

من خلف الراكوبة، كانت السِّرة تسمع الحوار، وتشعر بالوجع دون أن تستطيع الاقتراب.
وقد تاه عنها طعم العشاء تلك الليلة، وظلت مستلقية تحدّق في سقف الغرفة، تسأل قلبها:

يا ترى... شنو العارف الليل من وجع النهار؟
وشنو البيخلي القلوب تتغير فجأة؟.

في زاوية أخرى، كانت الريح تعصف بالراكوبة خارج البيت، وحبات الرمل تنقر على الأبواب... وكان ذلك إيذانًا بأن هناك مشهدًا أكبر ينتظر أم حجل، وتاي الله، والسِّرة، وكل من سار تحت ضوء القمر تلك الليلة .

📖 الفصل الخامس

»أول مواجهة... وصوت الحقيقة يعلو«

مطلع الفصل: انقسم الناس في أم حجل إلى فريقين؛ بين من رأى تاي الله سندًا وبابًا للخير، ومن رأى فيه خطرًا يُهدد الموروث. وفي ذلك الانقسام، وُلد السؤال الأهم: هل يختبر القدر الرجال بما لهم، أم بما يفقدونه؟

كان صباح اليوم التالي مختلفًا؛ هدوء غريب سكن الحِلّة، وكأن الأرض تنتظر كلمة غير عابرة.
في الحقل، وقف **تاي الله** وسط الرجال، لكنه لم يرفع جَردل الماء كما يفعل كل يوم، كان صامتًا، وكأن صوته معلق في صدره.

اقترب منه «حاج الماحي» وقال بصلابة:

يا ولدي... الحيطة لو وقعت، ما بتقوم بزينتَا... لكن بتقوم بالسند... إنت وقف... وخَلِّ الحارة تقول كلمتها.

أحنى تاي الله رأسه، وابتسم بمرارة، لكنه مدّ يده للفأس أخيرًا، واشتغل، رغم أن صوته ظل ساكتًا للحين.

غير بعيد عنه، كان **الزين** يتكئ على جدار ساكن، يرصد كل حركة بعين حذرة، وبصدر مجروح لم يُعرف له أصل.

وفجأة، خرج صوت من بين الجمع، صوت قوي وصريح، كان صوت «حاج مختار»، الذي وقف وسط الحواشة وقال بصوت جهوري:

نحن أهل، والفتنة ما بتعمِّر بيت... الزين يا ولدي، لو بينك وبين أخوك حاجة، قولها لينا... ما تخلي الناس تتفرّق ليلًا ونهار.

تردّد الصمت بين الناس، ثم تقدّم الزين خطوات بطيئة، وقال بصوت مُرتَبك:

أنا ما قلت إلا الحق... البلد دي ما اتعودت قائمة على ناس جايين من برّه... والليلة شُفت حاجة غريبة... تاي الله شالو ليهو مساحات في الأرض، أكتر من الباقين.

رفع تاي الله رأسه، تطلع في الزين بمرارة وقال:

والله يا زين... القسمة كانت بيد الناظر... وأنا كُنت آخر زول استلم... ولو في ظلم، قول بكل وضوح... ما تهمس من ورا الساتر.

ساد صمت طويل... بعدها انكسر الزين قليلًا، لكنه رفع رأسه ثانيةً في عناد:

يا جماعة... ما قلت حاجة ساكت... بس القروش بتقلب القلوب... والناس بتتغير بالمكانة... الليلة تاي الله عندو، بكرة نلقى نفسنا غرباء.

هنا، علا صوت «الشيخ الطاهر»، الذي جاء من خلف الجمع، وخطواته تهادي الجمر:

يا ناس أم حجل... ما في قلوبكم إلا ربكم... والفتنة أشد من القتل... وبيت الجماعة دا ما ببنيهو إلا صفاء النية... وغفران الزلل.

وضع يده على كتف تاي الله وقال:

إنت يا ولدي... الكلام ما بخوفك... لكن الصدق بيثبتك... خليك لله... والزمن حيبيّن مين وقف، ومين علّق.«

💔عند حوش البيت...

في تلك الليلة، كانت السِّرة تجلس خلف الدار، تحت ضوء القمر، تنفث همّها في طين الأرض، كأنّها تكتب بشفتيها رسالة لم تصل بعد لصاحبها:

لو الزول فقد الثقة في أهلو، بيبقى زي الشجرة المفصوله من رحم الأرض... لكن يا ربي... هل الحق دايماً بينتصر؟ ولا الحب هو الساتر الأخير؟.

ثم سمعت وقع خطوات تاي الله من بعيد، متوجهًا إلى بيته، بخطى أثقل من الحطب، وكتفين محمّلتين بوجع المكان.

نظرت إليه السِّرة، وهمّت بالنداء... لكنها كبحت الكلام، وقالت في سرّها:

لو هو تعب... فقلبي تعَب أكثر... والحب ما حيلة... لكن ما بنطق بيه إلا وقتو

.

📖الفصل السادس

»السرّ الذي خرج من الظلال... وحكاية ترتجف«

مطلع الفصل: ما عاد الفجر كما كان، لا في أم حجل ولا في قلوب أهلها. فثمة سرّ خفي، يتحرك ببطء، كما الحيّة في ظلّ القش... وما من أحد يدري متى تهجم.

كانت الشمس تتسلّل ببطء من وراء الغيطان، تنشر نورها على البيوت الطينية التي تزيّنها سعفات النخيل، لكن قلب **السِّرة** كان غارقًا في ظلامٍ صغير لا يراه أحد.
منذ تلك الليلة، لم تذق النوم... والهمس المتصاعد بين الرجال عن تاي الله صار يوقظها قبل العصافير.

في الديوان، جلس الناظر **فضل السيد** وحده هذا الصباح، لم يحمل مسبحته كما يفعل عادة، بل كان مشغولًا بأوراق قدمها إليه رجل غريب من «الخرطوم»، جاء في سيارة فارهة تقف خارج البيت وقد أثار وجودها انتباه أهل القرية.

دخل الرجل إلى الديوان وهو يسلّم باحترام، ثم قال للناظر بصوت رسمي:

سعادة الناظر ... أطالعكم بأمر مهم... هناك أراضٍ يُزعم أن ملكيتها لوارث آخر من عائلة المرحوم أخوكم... وأن هذا الوارث قد حمل وكالة قانونية يريد بموجبها النزع والتسجيل الجديد.

ارتبك وجه الناظر، وأعاد ربط عمامته قليلًا، وقال:

وكالة شنو؟ ومن وين جاء الكلام دا؟.

رد الرجل وهو يفرد الأوراق:

من الخرطوم... والوكيل هو شخص أقام دعوى منذ أشهر... ويطلب منكم المثول في إدارة الأراضي بالجزيرة للتحقيق.

كان وقع الكلمات كالحجر في الماء الساكن.
تجمّدت السِّرة على باب الديوان، ولم تستطع فهم ما يجري، لكن قلبها دقّ بعنف:

هل يمكن أن يكون تاي الله هو المقصود...؟

هل أحد خذل أبي؟

أم أن الغريب هو من يوقظ ترابًا دفينًا؟.

ليلة في المسيد... ومرآة مكشوفة

في تلك الليلة، لم يسعف الناظر قلبه سوى أن يجلس عند خالد النور في المسيد، يتلو من «يس» ويرفع يده بالدعاء:

اللهم احفظ القرية من الريح... وردّ الغائب إلى أهله... وسدّ باب الغرباء إن كان شرًا.

اقترب منه **تاي الله** بخطوات مترددة، ثم جلس أمامه، وقال بصوت خافت:

عمّي... سمعت إنو في زول جا من الخرطوم... وجاب ورق فيهو لجّة... الكلام دا صح؟.

رفع الناظر رأسه، نظر في عيني الشاب، ولم يقل شيئًا لوهلة.
ثم ردّ بصوت متهدِّج، يحمل مزيجًا من الحزن والحكمة:

الورق دا ما ساهل يا تاي... في زول داير يقلب الصفحة... يقسم الأرض ويقيف في وشّ المكان دا.

تغيّر وجه تاي الله، وشعر كأن الأرض انسحبت من تحت قدميه:

ولو كان في زول مننا...؟ من دمنا...؟.

صمت الناظر طويلًا...
ثم قال بصوتٍ يوشك أن ينكسر:

لو كان منّا يا ولدي... القدر بيجرب صبرنا... وحنشوف هل البيوت مبنية على الجالوص... ولا على الرحِم؟.

تركه تاي الله ثم خرج من الخلوة كمن يحمل همًا بأكثر مما تجود به الأرض، بينما الشيخ الطاهر ظلّ يردّد بصوتٍ مرتفع:

يبقى الصابر في باب الله محفوظًا...

ومن جا يشقّ الثوب للريح... تطيّره العاصفة.

من هو الوارث المجهول؟

وفي الغد، اجتمع الرجال في سطح بيت الناظر، وكان الجميع يترقب وصول خبر جديد من إدارة الأراضي.
تفاصيل الورقة جاءت عبر المكالمة... «الوارث» الذي يطلب القسمة، ليس سوى ابن عمّ «الزين» من جهة أمّه، رجل عاش خارج السودان، ويبدو أنه عاد وفي يمينه وكالات وأوراق وشهادات توثيق من «الخرطوم.«

قال «حاج مختار»، وهو يضرب الأرض بعصاه:

يا ناس... البيوت لو انشقت من الوسط، ما بتنفع فيها المسائل... لازم نعرف الحق... ونعمل بالحسنى.

أما الزين، فقد بان عليه التوتر، وغاب وجه الشماتة المتعود، وقال بصوت خافت كأنما يرثي نفسه:

هو الكلام كان ليه؟ قالوا دولة وقانون... لكن ما كنت أفتكر يصل لينا هنا.

هذا الكلام جعل حاج الماحي يركّز النظر فيه، ثم صرخ بصوت ثقيل:

أنت قبل أيام ما كنت بتلمّح على ناس جايين من بره؟!
الليلة تقول القانون جاهز؟ ولا التحالف دا كان من أول؟!.

التفت الناس للزين بغضب، وبدأت الوجوه تنقلب، وكان الصوت الذي خرج من «تاي الله» أقرب إلى البرق:

الدم في الأرض... والحق واضح... وما بين الناس إلا العدل... والظلم ما بعيش في الريف... مهما اتغيّر

الزمن

.

📖الفصل السابع

جلسة الصلح... ونبض القلب الذي أعلن موقفه

مطلع الفصل: حين تكبر المسألة عن رجل أو اثنين، وتصل إلى بيت الجماعة، لا بدّ من رفع البساط في الساحة، ودعوة العقلاء... فالصلح سيد الأحكام، والكلمة الطيبة أقوى من عصا الفتنة.

كان صباح ذلك اليوم مختلفًا عن كل الأيام التي سبقت.
الرياح الشمالية كانت خفيفة، تحرك معها ظلال النيم على أرض «أم حجل»، وكأنها تفسح الطريق لما هو أكبر من حديث الزراعة والتجارة، وتفتح بابًا لجلسة تاريخية في الديوان الكبير.

اجتمع كبار القرية مع الرجال الذين حضروا من القرى المجاورة، وجلس في صدر المجلس **الناظر فضل السيد**، إلى جانبه **الشيخ الطاهر**، وحاج مختار، وحاج الماحي، وغيرهم من العقلاء.

نظرتهم جميعًا كانت تتجه إلى شخص واحد كان يجلس بهدوء:
الوكيل القانوني القادم من الخرطوم، يحمل ملفًا من الأوراق في حقيبته الجلدية، وكأنه جاء ليختبر "التراب والدم والكلمة" في المكان نفسه.

فتح الناظر الحديث بصوت رزين:

يا أهل الحِلّة... القصة الليلة ما بيننا وبين زول بعيد... دي بيننا وبين نفسنا... الأرض دي أرض جدودنا... والحياة دي عمر بنى السلام بين الناس... والحق داير حسّ ورجاحة عقل، قبل ما يكون ورق وقانون.

ثم التفت للوكيل وقال:

اتفضل... قول العندك... ونحنا بنسمع، على شرط: تقول الكلام بالعدل... والنّاس تقيف على الصدق.

وقف الوكيل ومسح وجهه بمنديل، وبدأ يتكلم بلهجة بين الرسمية والاحترام:

»شكرًا سيادة الناظر ... الأوراق قدامي تثبت إنه في جزء من الأراضي دي مسجل باسم المرحوم حسن ود السيد، ومن بعده تنتقل إلى ورثته القانونيين... وده حق لا يحتاج نقاش... وكلام الناس ما يغير في القانون.

صمت المجلس، إلا أن **سراج** –الأخ الأصغر لتاي الله – تقدم خطوة بلا خوف، وقال:

ورثته؟ طيب... نحنا واولاده ... وعشنا بدمو، وأرضنا ما فيها ظالم... وحقنا فيكم، وحقكم فينا... وكل زول يعرف مين وقف مع الأرض، ومين جا بالوكيل.

أومأ حاج مختار برأسه وهو يقول:

الكلام واضح... والنية ظاهرة... إن كان ولداً مننا داير حقو، مرحب... لكن حقو ما بيسوّيه غريب.

حينها، نهض **الزين** من مكانه، وصوته يرتجف بين الدفاع والندم:

يا ناس... أنا ما كنت داير أقطع خيط بينكم... وما كنت فاكر الكلام يمشي للخرطوم ويرجع بصورة دي... لكن قلبي كان متغطي بالغيرة... وما عرفت قيمة الرجال إلا الليلة.

كان الصمت أبلغ من الكلام، قبل أن يقوم **الشيخ الطاهر** ويجمع كفّيه كأنما يرفع الأرض كلها بالدعاء:

اللهم اجبر كسرنا... واجعل صلحنا خيرًا... وازح عن قلوبنا ما يفرق الجمع... وردّ كل حقه لصاحبه دون خصام.

💔موقف لم يُنسَ... وقرار حاسم

وما إن انتهت الجلسة، حتى توجهت **السِّرة** إلى والدها الناظر، وقفت أمامه وقد تخلّى وجهها عن الطفولة، وابتهلت الكلمات فوق شفتيها دون ارتباك:

يا أبوي... إن كان الحق حق، وإن كانت الأرض أرضنا... فبجيتك، لا تظلم تاي الله... ولا تخلي الكلام يكسر قلبو... ولا قلب الحِلّة.

كانت تلك أول مرة يسمع فيها الناظر من ابنته كلامًا يتجاوز المطبخ والتمسّك بثوب الأم.
نظر إليها طويلًا، وكأنما رأى في وجهها صورة أمها الراحلة "أم سترين"، التي طالما قالت يومًا:

الراحلة يوم الخير... ما بتقفل بابو... والنية الزايدة بتسند البيت.

أمسك الناظر بيد السِّرة، وقال:

ربنا يزيدك نور وعقل... كلامك قزازة ما بتنشال من الحوش.

⚡لحظة مفصلية...

في نهاية اليوم، أعلن الناظر فضل السيد قراره أمام الجميع:

الورق يتراجع في مكتب التسجيل... والأرض تنقسم بالحق... والدم لا يُسفك على باب البيت...وتاي الله ولدي، وما في شي بيننا وبين الناس... إلا السلام.

ارتفعت التكبيرات من حوله، وعاد الناس لحياتهم، بينما تحوّل المشهد إلى ذكر في المسيد تلك الليلة، وكان صوت المدّاح كأنه يغسل قلوب الجميع:

اللهم صلّ على المصطفى... وزدنا نورًا وهُدى.

📖 الفصل الثامن

إعلان النوايا... وامتحان القلوب

مطلع الفصل: الأبواب التي تُفتح على ضوء الحق لا تُغلق بسهولة، لكن القلوب التي تهدأ بعد العاصفة قد تُواجه اختبارًا أشدّ قسوة... اختبار الحب والاختيار.

مرت بضعة أيام بعد جلسة الصلح، وانقشعت الغيوم التي خيّمت على القرية. عاد الناس إلى الحقل، وتبادلوا الأحاديث كما كانوا من قبل، بينما بقي في صدور البعض أثر خفيف مما سُمّي «أزمة الورثة»، في نفوسهم تساؤلات، وفي آذانهم كلمات لم تذُب بعد.

أما **تاي الله**، فكان الصمت رفيقه، كأنه يخاطب الأرض قبل أن يخاطب الناس. وفي صوته نشوة تراتيل من تربية الخلوة لم تغادره، وصدى يدٍ وقفت يومًا على باب النية الصادقة... قبل أن توقفها الريح للحظة واحدة.

في مساء ذلك اليوم، جلس مع **سراج** قرب النخلة الكبيرة خلف البيت، وقال بصوت منغلق، يحاول أن يستعيد القوة:

يا سراج... المحنة دي علمتني إنه الزول ما يتبجح برضا الناس... الرضا ما بنجبر، لكن العشرة بنبتها حبة حبة.

رد سراج وهو يضع يده على كتفه:

وإنت عملت البتقدر عليهو... ووقفت زي الجبل... والرجالة ما بينضوي عليها الظل.

قاطع صمتَهما صوت خافت جاء من جهة الراكوبة:

تاي الله....

كانت **السِّرة**، واقفة خلف ظل النخلة، وقلبها ينبض بنبرة مختلطة من الخجل والجرأة.
تقدّمت بخطوات لا تسمع إلا من اتسع قلبه، وقالت بعينين تلمعان في ضوء الغروب:

إن كان بيننا صبر... فالصبر دا ميراث جدودنا... وإن كان بيننا محبّة... فهي ما بتخجل ترفع راسها....ارتبك تاي الله، ووقف كمن يحاول أن يصدق أن صاحب الصوت هي السِّرة نفسها، التي لم تنطق بمثل هذا من قبل.

لم تلبث طويلًا، لكنها أضافت بصوت مبحوح، حمل بين طياته إعلانًا رفضت الأيام إخفاءه:

يا تاي... لو الضو ما اشتعل في بيتكم... ضويتو في قلوب الناس... إنت ما جيت بباطل... وجيت بنية قرابة... والقلب العافي ما بسأل عن الظن... بسأل عن الأصل.

ثم انسحبت، وتركت خلفها ذهولًا صامتًا، وسراج وهو يرفع حاجبيه في صدمة مُحبة:

خلاص يا زول... بت شيخ طاهر بلعت الشك...
دا كلام ما بينقري في ورق... دا الحِلّة كلها بتسمعو.

ضحك تاي الله أخيرًا... ضحكة كان يخفيها طيلة الأسبوع.

اجتماع القرية... وزفة لم تولد بعد

بعد يومين، أعلن الناظر فضل السيد قيام «ليلة الشكر»، وهي ليلة تقيمها القرية بعد موسم الخير أو الصلح الكبير. كانت علامة على عودة الحياة لطبيعتها.

نُصبت الفوانيس، وأُعدت الدلوكة، وبدأ صوت المدّاح يملأ الساحة:

سيد السادات... يا نور الذرات... لك الفضل... يا خير البرية.

وفي مكانٍ جانبي، تجمّع الرجال ينظرون لتاي الله باحترام يحتشد من جديد، بينما كانت النسوة يتهامسن قرب العنقريب:

بت فضل السيد حتلقى حظها... والله العريس دا ولد مبارك.

وكانت السِّرة، تجلس بين الفتيات، تخفض عينيها باستحياء، بينما قلبها يرقص في السرّ قبل أن يسمع به
المجلس .

إعلان غير مرتقب

في نهاية الليلة، وقف **الشيخ الطاهر**، وأشار بيده إلى الجمع، وقال:

يا ناس أم حجل... الشكر لله... وما بينّا إلا الخير... لكن الليلة في كلمة عايز أقولا...
تاي الله... بيتك جبر خاطر، وقلبي شايفك ولد صالح... والرجل لو كان داير يسكن الأرض والقلوب... ما بيسكن إلا بعد كلمة الحق.

ثم التفت إلى الناظر، وقال:

سيادة الناظر... إن رأيت في ولد أخوك رجلاً راشدًا، فاكسب أجر الكلمة، وأكرمنا الليلة بخبر يفتح باب الحلال! .

تجمّد المجلس لوهلة... نظر الناظر إلى وجه تاي الله، ثم إلى وجه ابنته السِّرة الذي يكاد يضيء من الحياء، قبل أن يقول في صوتٍ هادئ:

الكلمة الملزومة... ما بتتأخر...وتاي الله، إن قبلت، والسِّرة إن رضت... نختم القول، ونفتح باب البيوت على الفاتحة.

نزلت الكلمات على الحِلّة كالنور، فتعالت الزغاريد، وقال الرجال:

الله يتمّ على خير .

📖 الفصل التاسع

ما بين وعد وخطوة... تزهر الأرض وتختبر السماء

مطلع الفصل: ما بين إعلان الفرح ووقوع القدر، تظل الأقدار تلعب دورها الخفي، وتُدرك القلوب أن الطريق إلى الفرح ليس مفروشًا دائمًا، بل ممزوجًا بالاختبار والصبر والأمل.

استيقظت **أم حجل** في ذلك الصباح على صوت الندى يتساقط من النيم، ورائحة الخُبز من بيت الحاجة «عِشّة» تعبق في الفضاء، وكأن كل شيء يستعد ليوم جديد، لا يشبه سابقيه.
اليوم، ستبدأ الاستعدادات للخطبة المرتقبة، بعد إعلان الناظر عن موافقته مبدئيًا، وترحيب السِّرة الصامت بقلوب الجميع.

كانت السِّرة تمشي في باحة البيت، ترتّب حبال الغسيل، وتتظاهر بالتماسك، غير أن قلبها كان يخفق مثل جناح حمامة تتعلم الطيران لأول مرة.

في الزاوية الأخرى من الدار، كان **تاي الله** يعدّ نفسه للقاء رسمي مع الناظر، برفقة الشيخ الطاهر وسِراج. جلسوا جميعًا في مجلس بسيط، لكن كلماتهم كانت كبيرة في معناها .

قال الناظر وهو يصلح عمامته:

الزواج ما فيه لعب... البيت لو ما اتأسس على الحق، ما بكون له أصل... وأنا داير أسمع منك داير شنو؟.

رد **تاي الله** بثبات:

داير البساطة قبل الفخامة... الداير ستر البنات قبل ستر الرجال... وما داير مهر كبير... بل كلمة طيبة، وأصل طيب، ومشوار العمر بنبنيه سوا.

تنهد الناظر، ثم قال بابتسامة خفيفة:

أها... دي كلمة بتختصر طريقين... وأنا والناس شهود... يا تاي الله... الباب مفتوح بالنية.

هزّ **سراج** رأسه وقال ضاحكًا:

وأنا شاهد من الشهود... بس بنبدا نقسم العلف للحميري من هسه!.

ضحك الجميع، وترددت القهقهات خارج الديوان، حيث كانت السِّرة تسترق السمع... فابتسمت لأول مرة دون خوف، كأن الفرح وجد أخيرًا بيته.

بناء البيت... وبناء الموقف

في المساء، بدأت استعدادات بسيطة لزينة الحوش وإعداد "الفراش" الذي سيجلس عليه الضيوف في الخطبة. جاءت نسوة الحِلّة للمساعدة، وجلبت أم فراس الدلوكة، وبدأ صوتها يتدرّب على غناء «جانا العريس من بعيد.

لكن وسط كل هذا الوهج، وقف **الزين** بعيدًا قرب الشجر، ينظر إلى الحوش، وقلبه ينزف بكبرياء مكسور.
اقترب منه «حاج مختار»، وقال بصوتٍ هادئ، مليء بمودة لم تخفت رغم ما حدث:

الدنيا بتدي وبتاخد يا الزين... الليلة تاي الله داير يتزوج، وباجر الدنيا بُكرة يمكن يكون فرحك إنت... بس القلوب لو اتفتحت بالخير، الله بيفتحها ....

نظر الزين بعيدًا، ومرّت لحظة صمت قال بعدها بصوت مبحوح:

أنا غلطت... ولقيت الدنيا ضيّقة لما ضيّقت صدري... بس ما داير زول يشيل همّي... تاي الله أخوي... والمرّة دي، حاكون شاهد على الفرح وهو يتبنى.

شدّ حاج مختار على كتفه مبتسمًا، وقال:

دي كلمة رجال... ودي بدايتك من جديد، يا زين.

فجراً... صوت يوقظ الحقيقة

لم ينتهِ ذلك اليوم بالبشائر كلها...فحين أذّن فجر اليوم التالي، ووضع الشيخ الطاهر قدميه على فراش الخلوة، سمع صوت بكاء خافتٍ يأتي من داخل المسجد.

اقترب بحذر... فوجد السِّرة نفسها تجلس في طرف المحراب، وشالها يغطي وجهها وهي تكتم شهقاتها.

جلس بجانبها، وقال بصوتٍ حانٍ:

القلوب ما بتبكي من الفرح... إلا لو خافت تفقده....ارتفعت نظرات السِّرة إليه، والدموع تلمع على وجنتيها:

يا شيخ... بحسّ الفرحة قريبة... لكن جواي قلق... خايفة من كلمة ما نعرفها... من باب ما ينفتح... من ريح يجي من برّه يغير شيء.

ربّت الشيخ على كتفها بحنان أبوي، وقال:

الخوف حقّ الطفل قبل الزواج... لكن البت الراسخة، قلبها ما بينكسِر... والزواج باب رزق وستر، والنية الطيبة بتقطع شوك الطريق... والرب رب القلوب.

مسحت السِّرة دموعها، وعادت إلى بيتها، وقلبها مطمئن بالبركة، ولو بعد حزّن .

📖 الفصل العاشر

رسالة من الخرطوم... وريح تعُود محمّلة بالامتحان

مطلع الفصل: حين يقترب الفرح من باب البيت، تأتي الدنيا لتقول للقلوب: هل ثبّتِّم أركانكم؟ هل أحسنتم الظنّ بالله؟ فليست كل الرياح تُرسل للكسر... بل بعضها للتمييز.

كانت **أم حجل** تعيش أيامًا تشبه الغناء، منذ اكتمال موافقة الناظر على خطبة **تاي الله** للسِّرة.

النسوة يجهزن صُرر الشطة، والدلوكة لا تهدأ ليلًا في بيت الحاجة «بت غنيمة»، والصبية يلعبون في "الساحة" وهم يرددون:

»تاي الله ... داير يتزوج... والسِّرة قلب الحِلّة**!**.

لكن في ظهر ذلك اليوم، ظهرت عربة «لاندكروزر» بيضاء عند مدخل القرية، وتوقفت عند ظل النخلة الكبيرة. نزل منها رجلٌ أنيق يرتدي بدلة رمادية، ويحمل حقيبة جلدية، تمامًا كما فعل سابقه من «الخرطوم.«

دخل الرجل إلى بيت الناظر، وطلب الحديث على انفراد.

جلس أمام فضل السيد، ثم بدأ بصوت يحمل نبرة قلق رسمي:

سيادة الناظر ... أجيك برسالة مستعجلة من إدارة الأراضي بالخرطوم... الملف لم يُغلق بعد، وعليكم حضور جلسة إضافية للتحقيق النهائي بشأن ملكية جزء من الأراضي.

تجمّدت ملامح الناظر، ورفعت السِّرة رأسها حين سمعت صوت الرجل من الداخل، بينما تاي الله، الذي كان في الزراعة ، شعر بوخزة في روحه لم يعرف سببها بعد.

سأل الناظر وهو يضبط عمامته:

قلت إنو الموضوع انتهى... وقلنا اتفقنا على القسمة بالرضا....لكن الرجل أجاب بهدوء:

دا الكلام الأخير... لكن صاحب الوكالة من الخرطوم، أَصَرّ على تنفيذ القانون... وأرفق مستندات جديدة... وطلب الاستعجال مع مطلع الأسبوع.

جلس الناظر صامتًا للحظات، قبل أن يخرج نفسًا طويلًا، وكان كمن يسمع وقع أقدار يختبر بها الله قلوب عباده.

مجلس الرجال... وكلمة تميل عند الفجر

في تلك الليلة، اجتمع الرجال عند باب الديوان. جلسوا على الفراش الشرقي يتشاورون، وكان بينهم حاج مختار، والشيخ الطاهر، وحاج الماحي، والزين، الذي جلس في خلفية المجلس كمن يريد أن يعتذر قبل أن يُسأل.

قال الشيخ الطاهر بعد صمت طويل:

يا ناس... الله يبتلينا بالمال والأرض قبل الفرح... والامتحان دا ما بيكسر الظهر... بيكسر الكِبر.

رد حاج الماحي بصوت خفيض:

الكلمة قولناها... والأرض مهما تقسمت، إن انقسمت القلوب، حا نقيف في الضيق مع بعضنا؟.

هنا رفع الزين يده، وصوته يرتجف:

أنا عارف إنو كتير شايفني سبب الفتنة الأول... لكن الليلة عندي كلمة... لو البيسعى في الزرع والتقوى ما لقى حقه، فأنا شاهد على يمين تاي الله ... ما لمسته يد ظلم... وإن جيتو تسألو عن حق الجدّ... أنا واقف مع الحق... حتى لو كلفني كبريائي.

ساد صمتٌ ثم قال الناظر:

الكلمة التانية بيقولا تاي الله.

رفع تاي الله رأسه بثبات، وقال:

يا عمّي... أنا داير الحق... ما داير أظلم زول... ولو علي، أتنازل عن نصيبي، بس ما أتنازل عن محبّة الحِلّة... وعن الفرح الجاي لداركم.

ثم نظر نحو السِّرة من خلف جدار الديوان، وكأنه يحدّث قلبها دون صوت:

الستر باقي... ما دام النية حاضرة.

💔أثر الخبر على قلب السِّرة

في الركن الخلفي للبيت، كانت السِّرة تجلس على سجّادة أُمها القديمة، تقلب مسبحتها ببطء.

لم تعد دموعها تنزل، بل أصبحت تهمس وحدها كأنها تترنم بسرّ باللغة التي لا يعرفها إلا قلبها:

ربّ، أنا راضية... لكن اخذ بيد زولي... وخلّي الفرح ما ينقطع... ولو في امتحان، قوّي قلوبنا.

تقدمت إليها الحاجة عِشّة، وجلست بجانبها، ورَبّتت على كتفها وقالت:

البنيات قناديل البيوت... والنار ما بتقدلها العتمة... وربنا ما بخيب قلب صبر.

رفعت السِّرة رأسها وابتسمت، رغم أن عينيها ظلّتا معلّقتين نحو الشرق، حيث كان قلبها ينتظر الفجر ليَكشف الصراط .

📖الفصل الحادي عشر

الطريق إلى الخرطوم... وظهور الحقيقة على لسان الشاهد

مطلع الفصل: أحياناً لا يكون الصراع بين البشر، بل مع الأوراق التي تنطق باسمهم... والحق لا يضيع طالما أنّ هناك من يقرأ ما خلف السّطور.

في صباح اليوم التالي، تحرّك **تاي الله**، و**حاج مختار**، و**الشيخ الطاهر** في عربة «الهايلوكس» متجهين نحو «الخرطوم»، بعد أن قرر الناظر حضور الجلسة بنفسه، لكنه بقي مع أهل الحِلّة ليحافظ على سكون البيت، وترك المهمة في يد ثقيلة لا تخون ولا تتراجع.

كانت الطريق الطويلة تمتدّ أمامهم كأنها تختبر يقين القلوب، وظلّ صوت الشيخ الطاهر يساندهم بالدعاء طول الطريق:

اللهم نوّر البصر والبصيرة...وردّ الكلمة للحق قبل ما تسبقها الدنيا.

جلس تاي الله في المقعد الأمامي، وعيناه تنظران نحو الشمس الذاهبة في الغرب، كأنّ الغروب يكتم السؤال الكبير:

النيّة خالصَة... لكن هل الورق داير يمشي معانا؟ ولا ضدّنا؟.

في مكتب الأراضي بالخرطوم

دخَلوا مبنى الإدارة عند الظهيرة، وكان المكان مكتظًا بالمراجعين.
وقفوا في الطابور، ثم قادهم أحد الموظفين إلى المكتب الذي ينتظرهم فيه الوكيل القانوني الذي جاء للقرية قبل أيام.

على الطاولة، وُضِعت نسخة من السجلات القديمة، وورقة تُظهر اسم الوريث الجديد :**عادل إبراهيم ود اللمين**، ابن عمّ «الزين» من جهة الأم.

بدأ الموظف بصوت جاف:

الموضوع عندي واضح... والأرض مسجلة باسم جدّكم حسن ود السيد... وبعده تنتقل لأولاده... وبحسب الأوراق، التوريث لم يُستكمل رسميًا بعد... وأحد الورثة تقدم بشكوى باعتباره صاحب نصيب من عدم.

تبادل الرجال النظرات، لكن الشيخ الطاهر تقدّم بخطوة للأمام وقال:

نحن ما جايين نعترض على القانون... لكن جايين نقول إنو الوريث دا ما وقف في الأرض يومًا... ولا فكّر في الساقية ولا في يوم التوزيع ... ونحن ما دايرين الأرض تْباع لتاجر أو غريب، باسم الوارث... دايرين نقسم بالمعروف.

كان الموظف مستمتعًا بحديث الشيخ، لكنه لم يتأثر كثيرًا، وقال:

دي ما مشكلة الإدارة... الورق بيحدِّد... وتقديم الدّعوى حق.

تدخل فجأةً رجلٌ آخر من آخر القاعة، بدا مهمومًا بالملفات، لكنه وقف ناظرًا إلى المجموعة، وقال بصوت رزين:

السادة من أم حجل... لو سمحتوا... في شيء مهم محتاج أوضّحو.

رفعوا رؤوسهم إليه، فقال:

أنا ابن القرية المجاورة ليكم... وكنت شاهدًا على حالة الوريث دا... نعم عندو نصيب... لكن في ملف بِأثبت إنه باع أول حقّو قبل سنوات... وتوثق العقد... وهو الآن غير مستحق للادعاء... والبيع دا مسجل هنا... بس ما ظهر للسطح لظرف قديم.

ساد الصمت... وارتفع حاجبا «تَاي الله» و«حاج مختار»، بينما الشيخ الطاهر أغمض عينيه وكأنه يقول:

قد يجري الحق على يد غريب... لكن الغريب ما دام نطق بالصدق... يبقى قريبًا.

طلب الموظف الاطلاع على الوثيقة... وبعد مطابقة التوقيع والأختام، نظر إليهم وقال:

صحيح... العقد مُسجل... والوريث تنازل من سبع سنوات... والدعوى باطلة قانونيًا... لكنها محتاجة تأكيد من النيابة.

هنا وقف الزين الذي كان قد لحق بهم إلى الخرطوم خفية، وصاح بصوت ممزوج بالندم:

أنا الشاهد... دا ولد عمّي، وأنا كنت طرفًا وقت شراء الحق... وأشهد على التنازل.

ارتفع همس المكان، وغطّى الشيخ الطاهر وجهه بيده، وقال:

سبحان الله الذي يردّ الحقّ لأهلِه... ولو بعد محنة.

عودة إلى أم حجل... عيون تنتظر نور المساء

عاد الرجال بالخبر إلى القرية مع الغروب.
انتشر الخبر بين الناس كريح توافق، وانطلقت الزغاريد من بيت الحاجة «عِشّة»، وقبل أن يحل الليل، دخلت السِرّة على أبيها الناظر، وقلبها يرتجف:

أبوي... جاك الخبر؟.

ابتسم الناظر، وقال:

جا... وجاله الفرح معاهو... الأرض في أمان... والنية ما انكسرت.

حينها، أسقطت السِرّة رأسها خجلًا، وتمتمت:

الحمد لله الذي رزقنا الصبر... وجاب الفرح في وقته.

في آخر المجلس، احتضن تاي الله «الزين»، بعد أن خطى الأخير خطوة نادرة في الشجاعة:

إنت أخوي... ولو اتخُذِلت من الدنيا... حقّك محفوظ فيّا.

ورد الزين وهو يشيح بعينيه عن الدمعة:

أخوي... يا ريتك عرفت قلبي قبل الغصّة... لكن الليلة، قلبي بقى خفيف

.

📖 الفصل الثاني عشر

ليلة الخطبة... وبشارة من البعيد

مطلع الفصل: تأتي الليالي العظيمة كأنها حبات نور تُعطَى للقلوب التي أحسنت الظنّ، لكنها لا تكمل جمالها إلا حين تُختَبر بما وراء الفرحة... وما وراء الحلم.

كانت **أم حجل** تلك الليلة كعروس مكلّلة بالنور، ازدانت ببخور العود الذي حملته أم يونس من الجزيرة، وتعالى صوت الدلوكة في بيت الناظر فضل السيد، كأنّ كل بيت ريفي أصبح قلبًا نابضًا واحدًا.

الفوانيس معلّقة على حيطان البيوت، وتحتها زغاريد تأتي من ردهات الحِلّة، حتى إن العصافير على أسلاك الكهرباء رفعت رؤوسها وأخذت تتحسس هواء الاحتفال:

يَاوْزِمِّلنَا عَلَى الفَخْر...الجِّمَاعَة بقوا مْنَوَّرِين.

في بهو البيت الكبير، كانت السِّرة ترتدي ثوبها "الأخضر المرتّب"، تلمع فيه خيوط الذهب، وعيناها خجولتان لكنهما تغتسلان بالفرح، وهي تهيئ نفسها للظهور أمام النساء بصحبة الحاجة عِشّة وحبوبتها "ست الكرم"، مرددات:

يا بختك بالحبيب...جاكي ولد الأصول...راجل... راجل ود ناس.

أما **تاي الله**، فكان في ديوان الرجال، يتهيأ لاكتساء "الجلابية الناصعة"، وقد وقف الشيخ الطاهر بجانبه، فقال له بصوتٍ يختلط فيه الدين بالسند:

اللهم كما زينت ملكك بالنجوم... زيّن سيرة عبدك بالستر والوفاق.

ابتسم تاي الله، لكن قلبه ما زال يقف فوق حافة الاسم... اسمه، الذي كان يحمل وعدًا بالصبر، والآن يوشك أن يحمل عهدًا بالحب:

والله يا شيخ... الليلة حسيت بسكون ما حسيت بيه في حياتي... كأن ربنا قرب مني... وقال لي: اطمئن.

🎁 خبر مفاجئ قبل النقوط

في منتصف الاحتفال، كان الناظر يتلقى المهنئين عند سرج البيت.
تقدّم رجل غريب من بين الحشد، يحمل هاتفًا ذكيًا ويبدو عليه أثر الغربة.
سلم على الرجل الأكبر وقال:

سيادة الناظر ... معليش يا عم ، عندي مكالمة صوتية لازم تسمعها... جاياني من أبوظبي من صديق ليكم.

أخذ الناظر الهاتف، ووضعه على أذنه بصمت، ثم تغيّر وجهه قليلًا، وكأن نعمة جديدة هبطت على القرية:

نعم... نعم... دا خبر خير... والله النور زاد الليلة!.

تدافع بعض الرجال نحوه يسألون:

مالك يا الناظر ؟... خيرا؟.

ابتسم الناظر، ورفع صوته على الجموع:

يا ناس أم حجل... في بشارة جايانا من الخليج... جايالي من تاجر كبير في الإمارات، قريبنا ود النمير، بيقول زيادة الخير ما تنقص، وإنو داير يساعد تاي الله في مشروع زراعي...
وبيتكفّل ليهو ببداية الساقية الجديدة.

انفجرت الصيحات في المجالس:

الله أكبر... الله أكبر... الخير جا وبجاة!.

تقدّم سراج، وصوته لا يخلو من الخبث المحبوب:

أها يا تاي... قبل تكمل عرسك... جاك رزقك دا جنبك في النقطة!.

رد تاي الله بابتسامة، وقد اغرورقت عيناه:

والله يا سراج... رزقي الجاي من يد الله ما بخوّف... بخجل!.

🧠بين الفرح والقرار

اقترب الشيخ الطاهر من تاي الله، وقال بصوت يختلط فيه السر بالمعرفة:

الزواج سترة... لكن العمل صدقة جارية... يا ولدي، دا أمر ما تجيهو ساي... ارفقه بالنية الطيبة، وامشِ بالعلم قبل الغناء.

أومأ تاي الله، وكأنّ القرار بدأ يهبط عليه:

نِية كانت نِية بيت... لكن بقت نية دار... والدار تسع الفرح مع العمل... بإذن الله.

💞مشهد القَبول... وخاتمة ليلة تستحق الذكر

بينما تستعد السِّرة للخروج لتحيي النسوة، سمعت زغرودة «سُمية بت البشري»، فارتجف قلبها... وخطت على الحصير المنسوج دون أن تشعر بثقل قدمها.

ظن الناس أنها مجرد لحظة عرس عادية، لكن كل عيون كانت تنظر نحو تاي الله والسِّرة للمرة الأولى، في مشهدٍ يلتقي فيه القلب باحترام، والحب بامتنان، والقرية كلُّها بالشهادة.

اللهم اجمع بينهما كما جمعت بين الماء والتراب...

على خيرٍ وسترٍ ونور.

وانتهت الليلة، تاركة على أسماء الجميع رائحة الخبيز، وصدى الدلوكة، ورضا الله الذي يعيد للقلوب ما أخذت الدنيا منه في طريق العودة .

📖الفصل الثالث عشر

بين مشروع ورحلة... امرأة تعود من ذاكرة الغياب

مطلع الفصل: لا يكتمل بواب الفرح إلا حين يُعطى القلب فرصة أن يسمع من الماضي، أو أن ينظر في وجه الغيب ويدرك ما وراء الصوت والنور.

مع بزوغ فجر اليوم التالي لليلة الخطبة، بدأ تاي الله يُعد قائمة طويلة من الأغراض والتجهيزات... بعضها يخص بيته القادم مع السِّرة، وبعضها يخص المشروع الزراعي الجديد الذي سيبدأ بدعم من التاجر السوداني في الإمارات، كما بشرتهم المكالمة.

جلس مع الشيخ الطاهر وحاج مختار، يتبادل الأفكار حول تطوير «الساقية الجديدة»، وإضافة ماكينة ري حديثة تساعد على تقليل الجهد وتوسيع المساحة المزروعة من القطن والقمح.

قال الشيخ بصوته العميق:

يا ولدي... المشروع ده ما بس رزقك... ده رزق سكانٍ جاين من بعدك...شوفو بعين الشراكة للزمان... ما بس لليوم.

رد تاي الله وهو يفرد الورق أمامه:

نية العمل بإذن الله... للإصلاح قبل الكسب... داير أخلّي الحِلّة تستفيد... وأخلي رزقي محلّة بيّه وبيهُم.

تدخل حاج مختار، وهو يرتشف شاي الصباح:

رسالتك واضحة يا تاي... لكن الدرب طويل... والبداية محتاجة ليدين قويات، وصبر ما يتخلى... ونحنا معاك.

ابتسم تاي، وكأن الكلمة وحدها كانت زاده قبل أي تمويل أو أرض.

🚶‍♀️ظهور من الماضي

في تلك الأثناء، وصلت امرأة غريبة إلى «أم حجل»، تمشي بخطا واثقة، وتلبس ثوبًا أسودًا بسيطًا... لا يبدو عليها سمات أهل القرية.
استقبلتها الحاجة «عِشّة»، وطلبت منها الجلوس تحت ظل الشجرة.

قالت المرأة بصوت خافت، متأثر بلحن بعيد:

جاية من مكان بعيد... من مدني... ودايرة ألقى الناظر فضل السيد... عندي كلام بيني وبينُه من زمان.

نظرت إليها الحاجة عِشّة بدهشة، ثم سألت:

تعرفي الناظر؟.

هزّت المرأة رأسها، وقالت:

أعرفو... وأعرف بتّه السِرة... وعندي كلمة، يمكن تكون بيّن الحق والدمعة.

لم تنتظر طويلًا، حتى دخلت بيت الناظر برفق، وجلست بعد أن حيّته وأخذت إذنه بالكلام.

بدت علامات الصمت تُغطي مجلس الرجال حين ظهرت امرأتان ترفرف حولهما القصة.

ثم قالت المرأة، بلهجة عميقة، صوتها يغلبه الحنين:

يا عم فضل... أنا سُعاد عبد الرحمن... مرات حسن ود السيد... أبو تاي الله وسراج... جاياك من البعد، بعد ما ظنّيت الدنيا قطعت خيطه.

شهق المجلس بصوت واحد بعد سماع الاسم.
وقف تاي الله مذهولًا، والسِرة وضعت يدها على فمها، وكأن الحياة تتوقف لحظة قبل أن تتنفس من جديد.

عادت الأم البعيدة... والدموع التي جفّت في انتظارها، عادت تسقي مشهدًا لا يُنسى:

يا وليدي... يا تاي الله ... ما كنت دايرة أغيب...والغياب ما كان بإيدي.

تجمد الزمن لحظة، وكان لقاء الأم بابًا جديدًا في الحكاية، لا يُفتح إلا لمن يعرف معنى الفقد واللقاء الحقيقي.

💔صدمة الوصل... وبداية إعادة رسم الحياة

لم يحتمل تاي الله هول المفاجأة.

اقترب بخطوات مرّت فوق كل مسافة الغياب، ووقف أمام أمّه ولم يقل شيئًا.

اقتربت منه، وضعت يدها على رأسه المرتجف، ثم قالت:

سامحني يا ولدي... لا الدنيا سمحت لي... ولا الغربة رحمتني...
وقلبي كان في الحِلّة... لكن جسمي في بلاد غيرها...
وعِشت على حسرة ما بين أم وبحر.«...

انهارت الدموع في المجلس.

وبينما تحاول السِرّة أن تخفي دموعها، سأل حاج مختار بصوت مكتوم:

الغربة... ليه ما جيتي قبل كده؟.

ردت:

المصائب بتسحب للبعيد... وأنا كان همّي واحد: اللقيا يوم ما تنكسر القلوب... والحمد لله اللي رجّعني قبل عرس ولدي.

📖الفصل الرابع عشر

دمعة الأم... والقرار الذي يعيد ترتيب الحياة

مطلع الفصل: حين يلتئم الجرح على أبواب الفرح، ندرك أن القلوب تحمل أكثر مما تقوله الدموع، وأن اللقاء هو ما يجعل الفراق موقفًا قابلًا للغفران.

كان اللقاء مزلزلًا، كما لو أن سنوات الغياب قد تآمرت لتعطي لحظة واحدة كل ألمها وسلامها معًا.

جلس **تاي الله** قرب أمِّه «سعاد عبد الرحمن» داخل الديوان، وهو ينظر إلى يديها المحمّلتين بشقوق الغربة، وإلى عينيها التي كسرتها الدموع لكنها ما زالت تقاوم مثل ساقية تحاول أن تواصل دورانها رغم انقطاع الماء عنها.

كانت الحاجة «عِشّة» تقف خلف الباب، تمسح دموعها بطرف الثوب، وتتمتم بالحمد:

لا إله إلا الله... ربنا ما بيضيع صبر زول.

بينما «سراج» لم يطق الثبات، تقدم نحو أمّه برعونةٍ كطفل ضاع من حضن أمه وعاد فجأة، ووضع رأسه في حجرها، وقال بصوت تكسره الدموع:

يمّا... لو النار حرقت صدري... رجوعك طفاها من جديد.

وضعت الأم يدها على شعره، وقالت بصوت صادق يخترق الحجر:

ما كنت بعارض الدنيا... لكن الدنيا كانت فرصة ضاعت بيني وبينكم... والغربة غزت جسمي ما روحي... الروح كانت ببلدكم.

👩أثر الأم على السِّرة... سؤال القلب

وقفت **السِّرة** في ظل الباب، تنظر إلى المشهد الفريد، وتقول في سرّها:

دي المرّة الأولى بشوف تاي الله ولد... ما راجل بس... راجل وولد في ذات اللحظة... وأمه حضنه... والقلب ده... عارف يستاهل شنو؟.

اقتربت حاجة «عِشّة» منها، وقالت:

اتركي الدمع براحتو... بس لا تخليها تكسر الفرح... دا نهار فرحة... وربنا جبر القلوب قبل ما نسمّيها.

لكن السِّرة كانت تنظر إلى تاي الله، وتحاول أن تفهم ما إن كان لعودة الأم أثر على مشروعهم المشترك، على البيت الذي سيبنيه، على المسار الذي كان مستقيمًا دون تعقيدات.

تنهّدت، ورفعت يديها للسماء:

يا رب... زد الفرح ما تنقصو... ورد الخير بسلام لبيتو.

💬حوار القلب بين الأم والابن

لاحقًا، جلس تاي الله مع أمّه تحت ظل النخلة، وقد عاد الليل بخطاه الهادئة.
تأملا معًا السماء، والأرض، وتلك البقعة التي جمعت بينهما بعد سنوات.

قالت الأم بصوت مخنوق:

يا ولدي... ما جيتك عشان أبكي... جيتك أبارك... وأقول: ربنا يزين بيتك وسريرتك... ويهديك لبنت الحلال.

ابتسم تاي الله خجولًا:

السِّرة؟.

هزت أمّه رأسها، وقالت:

عرفت يا ولدي من نظرة الناس ليك... ومن حديث الناظر... دي بنت ستر... وجميلة في الداخل قبل الخارج... وربنا جابني اللحظة دي...
عشان أشهد زفافك... قبل ما الزمن يقفل الباب.

غمرته بالكلام بعد الصمت، ثم قالت كمن يفشي أهم سرّ:

لكن قبل تفرح... اسمعني يا وليد... الغربة علمتني حكمة...
الفرح ما دايم... ولو ما شاركت فيه كل زول بتحبّه... ما بيثبت.

⚠️ القرار المفصلي

هنا، ظهرت نبرة حزن خفيفة في كلام الأم، وكأن الأمر ليس بسلاسة اللقاء فقط:

أنا مرقت من البلد لحاجة... وجيت راجعة ونفسي تعبانة... وبيني وبين الزمن كلمة... لازم أقولها.

توقف صوتها قليلًا، ثم تابعت بجدية:

أنا إخترت ما أسكن هنا...
قلبي مستعد يشوف فرحك... ويتأكد إنو إنت بخير... لكن بحتاج أرجع محل شغلي... وما دايرة أضيّق عليك دنياك بوجودي.

هنا شعر تاي الله كأن الريح أخذتْ لهفة الرجوع ووضعتها في ميزان القلق.
هل تعود أمّه إلى البعد بهذا القرار؟
هل السِّرة يمكنها تحمّل فكرة غياب الأم في بداية الحياة الجديدة؟
هل يتقبل الناظر هذا الكشف العاطفي والاجتماعي كلّه؟

وقد جاء اللقاء بطعمه الحلو، وترك خلفه مرارة قرار يصعب على القلب احتماله،
دون أن نعرف بعد... هل يستقر البيت على الفرح أم على الرحيل؟

الفصل الخامس عشر

ما بين أم وبيت... والستر الذي يحمي كل قلب

مطلع الفصل: لا يكتمل الفرح إلا إن كنّا صادقين مع أنفسنا أولًا، فالأحلام تُبنى بيدَين، لكن تُثبَّت بقلب واحد يُرضي بالله، ثم بالقريبين منّا.

كانت **السِّرة** في ذلك الصباح تجلس قرب ‘‘التحويطة’’، تُحضّر جدائل الثوب الأبيض الذي سترتديه ليلة الدخلة، وقد بدت كمن يخبئ في فمها غصة خفية، رغم صخب الفرح المتواصل حولها.
أما الخبر الذي كان بمثابة الضيف الثقيل على قلبها، فهو قرار أم تاي الله بالعودة إلى البلاد التي كانت تسكنها... بُعيد إتمام الزواج مباشرة.

دخلت عليها حاجّة «عِشّة»، وقد فهمت ما يدور في خاطرها، فقالت برفق:

يا بتي... مرات الزول بيتفتح ليهو باب الفرح... لكن جواتو سؤال صعب... وتلك الأسئلة ما بتتجاوَب إلا بستر النية.

ردّت السِّرة، بصوت خافت يشبه خفقة في أذن القلب:

أنا ما بزعل من أمو... بالعكس فرحانة بوجودها... لكن خايفة... لو مشَت، أكون أنا السبب؟ ولا الظروف بتسبقنا؟.

ربّتت عليها الحاجة، وردّت بنبرة حنان شديد:

الزواج ما بيقيف على زول واحد... لا عليك ولا عليها...
والسترة ما بتيجي إلا من باب الرضا... والرضا بيعوّض غياب ألف جسد.

👴 حديث بين الأم والناظر

بعد صلاة الظهر، جلس **الناظر فضل السيد** مع أم تاي الله في الديوان. لم يكن الحديث جهاريًا، بل كانت هناك نبرة احترام قديم وشجن مسكوت عنه.

قال الناظر بصوت جاد لكنه دافئ:

السيّدة سعاد... حقّك محفوظ في بيت ودّك... والدار تسعك قبل الباقين... لكن فهمت إنّو دايراك ترجعي قريب؟.

ردّت بهدوء:

يا عم فضل... حياتي استقرت في البعد... وما بعاين للدنيا بأماني...
أنا جيت أبارك ولدي... وأمشي... وما دايرة أكون عبء على بيت بنيتو بالعناية.

تنهد الناظر، وقال:

الرجوع ما دايم لصاحبو لو كان القلب مفتوح...
والزول البساوي خير، بنخليه يمشي بالذكر الحسن...

لكن في نقطة لازم تتفهميها... البنية دي – السِّرة – قلبها نظيف وبخاف ربي... لكن دي شيلة كبيرة لأول زواج ليها.

قالت الأم بصوت خفيض:

عارفة... وعارفة إنو وجود الأم في البداية متين... لكن زول باعدتو الدنيا... ما يقدر يملي كل الفراغ ... بس بخلي ليهم دعوة الغايب.

❤️مشهد الاعتراف بين تاي الله والسِّرة

في المساء، ذهبت السِّرة في زيارة قصيرة إلى بيت الحاجة «سمية بت البشري»، ثم عادت، فوجدت تاي الله واقفًا بالقرب من الساقية، ينظر نحو القمر.

اقتربت بحذر جميل، وقالت:

تاي... أريد أعرف الحقيقة منك... أمّك بتمشي بعد العرس؟.

التفت إليها، وابتسم بثقل، ثم قال:

السِّرة... الدار لو دخلها الهم، ما بتكون دار... وأمي قلبها كبير، لكن الدنيا علمتها الوجع واللقمة الناقصة... وأنا ما ح أرفض ليها رجعة لو دايراها... لكن ما ح أخلّي شي يخليك في شك.

هنا اقترب خطوة منها، ورفع رأسه نحو السماء:

الأم ما بتتعوّض... والزولة الحنينة في الحِلّة دي... ما بتتعوّض تاني...
وأقسم بالله... قدام سما الله وأرضو، إنّو قلبي ما ح يكون إلا ليكم... وما ح يخلي الفرح ينقص، لا برجعتها ولا برحيلها.

كانت تلك الكلمات هي الجدار الذي محا أي وجع في قلب السِّرة.
لم تجبه بالكلام، بل بدمعةٍ صامتة هبطت مع ابتسامة مطمئنة، وقالت:

»إنت راجل... والمسيد ما غلط فيك.«...

وقد استقرت في القلوب حكمة: أن النعيم لا يُقاس بالاكتمال، بل بالقبول. وأن البيوت لا تُبنى بجدار واحد... بل بدعاء يثبّت السقف، وثقة تملأ الداخل.

📖الفصل السادس عشر

فراش العرس... وخبرة الليل الذي لا ينام

مطلع الفصل: **بين ليلة الفراش وبشارة الغد، تتسارع الخطى، وتتهيأ القلوب لنذور الفرح، لكن في الخلف... هناك دائمًا ما ينتظر أن يُقال، أو ما لا يريد الرحيل**.

امتدَّ اليوم في **أم حجل** كأنّه احتفالية طويلة لا تُريد أن تنتهي، فالعرس اقترب، وازداد معه صوت الدلوكة من بيت الحاجة «مريم »، بينما انتشرت صواني الحلوى في «الديوان»، والنسوة يتناوبن على العجين والتهليل معًا:

اللهم بارك في ليلة السّرور... واحتضن يا ربّ مقاديرنا بالرضا والنّور.

في ظلّ شجرة «النيم» القريبة من بيت الناظر، كانت **السِّرة** تجلس بين الفتيات الصغيرات، وفي يدها قطعة حرير بيضاء تطرّز عليها بخيوط ذهبية ناعمة كلمة:

الستر... الستر... الستر.

نظرت إليها «منيرة بت الحاج حسان» وقالت بضحكة خفيفة:

والله يا السِّرة... لو الخيط بيمشي للقلوب، كان اسمك ما بيحتاج زينة... قلبك أسمى من الخيط.

ابتسمت السِّرة... لكنها كانت تخفي قلقًا خفيفًا، لا تعرف له اسمًا، ينتقل معها من يوم ليوم، كأنّ فرحها لا يكتمل بلا حافة من الخوف الرفيق.

🐫 حوار الرجال... ورسالة من بعيد

في الجهة الأخرى من الحِلّة، جلس **تاي الله** مع رجاله :**سراج**، **حاج مختار**، **والشيخ الطاهر**، يناقشون التفاصيل الأخيرة قبل الزفاف:

نوزع التقاوي بعد ما نعمل القسمة الجديدة...والمكنة تكون جاهزة قبل موسم المطر...ولو رسل لينا القريب من أبوظبي القسط الأول، بتبقى الأمور مستورة إن شاء الله.

هنا تدخل سراج بنباهة:

لكن السفر لأبوظبي يا تاي الله... ما بتقدر تمشي في الفارغة... لازم يكون في برنامج رسمي... والفرح قدّامنا... كيف بتلحق دا ودا؟.

سكت تاي الله قليلاً، ثم قال:

العين على الفرح... والقلب على العهد... والمستقبل داير حل نضيف...السفر بعد العرس بكم يوم... نخلص من الفُقّار... ونكتب العقد... و نأمّن البيت.

هزّ الحاج مختار رأسه موافقًا، ثم قال بنبرة خبرته الطويلة:

أها... دا الكلام، العُمر طويل... والفرص لو جات بالبركة... لازم تقيف عليها بكرامة.

دخول «زائر الغيم»... وذكرى خفية

في المغرب، وبينما كانت السِرّة تجهز ‘‘قفة’’ فيها قماشات العرس ومكانس النخيل، ظهرت عند باب البيت امرأة مسنّة بوقار غريب، ترتدي ثوبًا سماويًا خفيفًا، وتحمل مسبحة، وعلى جبينها أثر سَفر.

تقدمت بخطوات بطيئة، وسألت بصوت ضعيف لكنه واضح:

دي دار فضل السيد؟.

ردّت السِرّة باحترام:

أيوة يا خالة... تفضلي... وهي تزيح البرش بينهما.

جلست المرأة، نظرت إلى السِرّة بعمق، وقالت:

أنا الحاجة ‘‘ستّ النُعمة’’، خالة أمّك الرّاحلة... جئت من الكاملين بعد ما سمعت بعرس بنت المرا العفيفة ‘‘أم سترين.’’

هنا اتسعت عينا السِرّة، وقالت بامتنان:

الله يحييك يا بركة الوصال... البيت نور بوجودك.

تنهّدت الحاجة، وحدقت في السِّرة بعين بلا دموع:

أمّك، الله يرحمها، كانت زولة ما بتكسر عين الضعيف...وباتت ليلة فراقها، تقول: "خلّيت البنية وقلبي ما قِدر يليف... لكن الله ليها في الدارين."

خفت صوت السِّرة، وهمست:

أنا راضية عليكي يا أمي... اليوم وكل يوم.

⚠️ خبر غير متوقع يغيّر الحسابات

وقبل أن ينتهي الليل، طرق باب الحوش رجل من طرف «الحلّة التانية»، يحمل ورقة مختومة.

مدّها للناظر وقال باختصار:

جانا اتصال من أبوظبي... قريبك (ود النمير) داير يرسل ليكم دعوة رسمية ليك ولتاي الله ولشخص ثالث... بعد العرس مباشرة...
دايركم تكونوا جزء من شراكة كبيرة... في إمارة الشارقة.

تجمد الناظر، وقال:

بعد العرس بي كم؟.

رد الرجل:

بي أربعة يوم... قال العمل ما بوقف... والفرص ما بتتأخر.

نظر الناظر إلى الأرض، ثم للسماء، ثم طرق الباب على نفسه، وهو يقول:

الأيام الجاية فيها خير كتير... لكن لابُدّ من تَرتيب القلب قبل الخُطوات.

من بعيد، كانت السِّرة تراقب المشهد، وتفهم أنّ الفرح بات يحتاج إلى قرار أكبر من ثوب العرس... قرار يقسم ما بين الحب والواجب، ما بين القرية والخارج .

📖الفصل السابع عشر

بين الدعوة والدار... والقرار الذي لا يُتخذ وحده

مطلع الفصل: تأتي اللحظة التي تتقاطع فيها الطرق، لا بين خيارين فقط، بل بين زمنين: زمن البدايات وزمن الحِكمة. وهل يمشي الرجل إلى رزقه بقدميه، أم يصبر حتى يكتمل البيت؟

في الليلة التالية لورود خطاب الدعوة من الإمارات، عمّ الصمت مجلس بيت الناظر.

جلس **تاي الله** بين الرجال، وصوت الشيخ الطاهر يتردد في أذنيه كما لو كان جزءًا من نبضه:

الرزق ما بيتأخر، ولا فرح بيتكسّر إن كان مقدور...لكن الحِكمة تقيف على خطوة.

كان **سراج** يجلس في زاوية المكان، يلعب بعصى صغيرة على الأرض، لكنه كان يستمع بعناية أكبر مما بدا في ملامحه.

أما **حاج مختار**، فقدكسر الصمت أولًا:

السفر فرصة... وفيها باب كبير لخير البلد، ولتاي الله نفسو... لكن يا جماعة، العرس بقى على أيّام... شيل دا ودا في كف؟.

ردّ الشيخ الطاهر، وهو ينظر للمصحف المفتوح بين يديه:

حنا بنقول كلمة الحق...القلوب بتاخد القرار برضاها، لكن البيوت ماتتبني على استعجال.

رفع تاي الله رأسه، ثم قال بهدوء مفعم بمسؤولية أكبر من عمره:

والله يا عمّ الشيخ... السفر دا رزق... لكن ما داير أسافر يوم العرس... وما داير أمشي ومشاوير الفرحة ناقصة... ولا أخلي السِّرة تستناني في بيتنا وحيدة.

أومأ الرجال، وقال أحدهم:

كلامك موزون يا تاي الله ... لكن رسالتك من أبوظبي واضح معناها: دايرينك في الشغل بالرّاي والجهد... موش ببصمة اسمك بس.

سكت تاي الله قليلًا، ثم قال:

خلوني نشاور الناظر... ونسمع صوت السِّرة بعد صلاة العشاء... الدار ما بتمشي على كلمة زول واحد.

جلسة النساء... وصوت الحكمة الحنونة

في بيت السِّرة، اجتمعت النساء على صوت "الدلوكة"، وهي آلة إيقاع سودانية تضرب على جلدها المنزلي، لكن انعقاد الجلسة لم يكن حول الغناء، بل حول خبر السفر المفاجئ.

قالت الحاجة **عِشّة** وهي تمسح على شعر السِّرة:

الرزق ما بتكابرو يا بنية... والراجل لو طلع عشان يجيب لقمة بالحلال... ربنا بيرزقو ويقوّيهو... لكن العقل والشور ضروري.

ردّت السِّرة بصوت يتسم بالوعي العميق:

أنا ما ضدّ السفر يا يمّة... لكن الزواج ستارة للدار قبل الصحن... وما دايراه يكون فرحة ناقصة... ولا رحلة مؤجّلة من حقّي.

رفعت رأسها، ونظرت في عيون النساء:

يوم ربنا يبارك في البيت... الواحد يمشي، لكن يمشي من بيتو، من مكانو... ما من الشارع... ولا قبل ما نقول "تمّ العمر بينّا."

هنا، نظرت «سعاد» – أم تاي الله – إلى السِّرة بعين تحمل صوت الماضي، وقالت بصوت يوشك أن ينهار:

بنيتي... الراجل لو لقي زولة تفهم صمتو قبل كلامو... بكون أقوى في الطريق... إنتي بالسَّتر تقيفي معاهو... وبالدعاء تمشّيه سليم.

ثم وضعت كفّها على كتف السِّرة، تتمتم بدعاء كأنّه يسري من قلب أمٍ مختبرة:

اللهم بارك لها، ولا تحرمنا من نظرة قلبها... ولا تخليها تعرف الجفا أبداً.

مشهد الساقية... وبكاء على كتف غير متوقع

قبل الفجر، خرج تاي الله إلى الساقية وحده، يسقي الأرض ويحدّث التراب الذي أصبح صديقًا لصمته.

وفي لحظة، شعر بوجود شخص خلفه... كانت أمّه واقفة، بخطوات خافتة، حافية القدمين، كأنّ الليل أحضرها إليها مباشرة من رحم القلق.

قالت بصوت يقطُر ألمًا:

لو داير تمشي... امشي برضاك، لكن امشي بعد ما تأمن البيت...ما تخليني أكون سيرة في الحِلّة... أم القدر سدّ بيتا... ولا عرس ابنها اتأجّل.

اقترب تاي الله، ووضع رأسه على كتفها كما يفعل الصغير الذي يواجه عاصفة أكبر من قامته، وقال:

يا أمي... العرس دا لازم يتم... والسفر ما بيأجل ستر ربنا.

ردت وعيناها لا تفارقان القمر:

وربنا ما يأجلك لا في سفر... ولا في ستر... يا ولدي.

وقد ظهر عبق القرار مع بداية الفجر: السَّفر لن يكون طريقًا هاربًا، والزواج لن يكون بابًا مؤجَّلًا... لكن كيف يجتمعان؟ وهل تستطيع السِّرة حمل القرار أم أن القدر يخبّئ لها طريقًا تختلف فيه الخطوة عن الحلم؟

📖الفصل الثامن عشر

ليلة الحنّة... حين تتقاطع السعادة مع القدر

مطلع الفصل: لا يكتمل الفرح إلا بليلة تُلوّن الكفوف، وتُعلن أن اليدين أصبحتا مستعدتين لبناء بيت جديد... لكن القدر في بعض الليالي يحب أن يُذكّرنا بأنه حاضر، مهما علا صوت الدلوكة.

كانت ليلة الحنّة في «أم حجل» أوسع من أن تُختصر في دلوكة أو زغروتة. صُفّت الكراسي أمام بيت الناظر، واضطجعت السقوف الجميلة على أكتاف «الفرقان»، وجاءت النسوة من القرى المجاورة وهن يحملن «علب الحناء»، والزينة، وملابس الثوب المصبوغ، وثوب الجرتق ، وبعضهن يحمل ذكريات من أفراح مضت قبل سنين.

في الطرف الآخر من الساحة، صُبّت الحلبة على الأرض، وبدأت «عِشة بت عبد الجبار» تضرب الدلوكة ، بينما الصغار يدورون دوامة اللعب حولها:

يا مدينة المِحَبّة يا أم حجل...الليلة فيكِ يا نور...تاي الله بيمد الجِذور...وبكرة نمشي نزفّ السِرّة فوق فرش الزهور.

الليلة فوق عزنا ...... قبائل مابتهزنا ..... هوي الناظر جدنا

في هذه اللحظة، كانت السِّرة تجلس وسط الخدر، يحيط بها ثلاث من البنات يساعدنها على إعداد «النقش» على الكفّين.
لوحتها الهادئة كانت مشبعة بالحياء، إلا أن قلبها كان يلتفت كل برهة إلى الخارج، ينتظر صوتًا واحدًا: صوت خطوات تاي الله.

لكن في لحظة ما، انقطع الإيقاع قليلاً، حين دخل رجل يحمل «مظروفًا أبيض» ويظهر عليه أثر السير على الأقدام من الطريق البعيدة.
سأل بصوت متواضع:

دار الناظر فضل السيد؟ عندي خطاب مهم... من أبوظبي... باسم العريس تاي الله حسن ود السيد.

ارتبك رجال "الضلّة"، وأخذ حاج مختار الظرف، ثم دخل به على الناظر وسط الزينة.
كان تاي الله يقف بجواره، وما إن سمع اسمه، حتى اقترب، وقلبه يدقّ بخفة ممتزجة بقلق:

خبر خير إن شاء الله؟.

فتح الناظر الظرف بصمت... وحين قرأ الرسالة، ظهر في عينيه بريق لم يُخفِه العمر، ثم قال بصوت مخنوق:

تاي الله...الدعوة اتعدّلت... ما بقوا دايرين زول واحد في السفر... الجاي ده خط ابتسامة الدهر...الدعوة باسمك... وباسم السِّرة كمان!.

ساد صمت عميق... كأنه وميض برق في ظهر الحفل، قبل أن يتلاشى في ضحكات وحركات مباغتة.

🎉إعلانٌ يفاجئ الجميع

وقف حاج مختار، رافعًا صوته:

يبقى الكلام واضح... تاي الله مطلوب للهندسة، والسِرّة مطلوبة للدراسة والمشاركة...
والله اللي جمع بينهم في النصيب، جمع بينهم في الطريق!.

تعالت الصيحات، وانطلقت الزغاريد الحارة من النسوة، فدبّت الحياة في ليلة الحنّة كما لم يحدث من قبل، وصارت الساحة مهرجانًا لفرح غير مألوف:

السفر سوا... والدار سوا... والنية تنتقل مع القلب مهما بعدت الدروب.

أما السِرّة، فما إن سمعت اسمها مذكورًا داخل الدعوة، حتى وضعت يدها على قلبها، وشعرت أنّها لم تعد تمشي على الأرض، بل على وعد من الله لم تتخيله حتى في حلمها.
وعندها، تذكرت جملة أمها التي كانت ترددها:

الفرح ما بتِلمّه الأبواب... لو كان مقدّر ليّك... بلقّاك حتى في بلد الناس!.

مشهد خاص بين تاي الله والسِّرة

قرب الساقية، وبينما الناس يرحّبون ويزفّون، التقى الاثنان في فجوة صغيرة من الليل.

قال تاي الله وهو ينظر في عيونها:

السفر ما بفرّق... السفر بيجمع لو بنية... وأنتي معاي... مش داري أقول شنو؟... دام ربنا اعطاني نعمتين في ليلة واحدة... الزوجة والظهَر!.

أجابته السِّرة بصوت مليء بالدهشة:

كنت بفتكر إنو الحب دا غيمه ما بتسافر... لكن ربنا بخليها تمطر فوق الحلال...ثم أضافت مبتسمة:
لو منك أسمع... برضى كتير... بس لا تخليني أخاف...فرد تاي وهو يمسك يدها برفق أكبر من أي كلمة:

الخوف باقي في الدنيا... بس بيهون لما تكوني معاي.

قد اجتمع الفرح الذي طال، مع القدر الذي بدأ يخط أبوابًا جديدة، لا إلى بيت واحد، بل إلى بابين: باب الأرض... وباب السفر .

📖 الفصل التاسع عشر

زفاف في أم حجل... ومرايا الرحيل القريب

مطلع الفصل: في الليلة الأخيرة قبل الزواج، لا يتوقف الفرح عن التوقيت، بل يُسهم الزمن بنفسه لمراعاة اللحظة، كأنه يقول: "خذوا ما شئتم من البهجة... فالغد لا يخلو من سفر".

امتدت ساحة الفرح من عند الساقية حتى مشارف «طريق السوق القديم»، حيث تجمع رجال ونساء القرية كلّهم لحضور ليلة الزفاف.
بُسطت «الحِصُر»، وأُضيئت فوانيس الزيت، ونُصبت "عنقريب العريس" في صدر المجلس، بينما وقفت «سعاد عبد الرحمن» – أم تاي الله – عند طرف المكان، في ثوبها الأسود الأنيق، تتأمل المشهد بعينين تلمعان بحزنٍ رقيق، كأنّهما تدعوان الله قبل كل تفاصيل الفرح.

دخل العريس **تاي الله** بجلبابه الأبيض وعِمامته المكوية، وهو مطأطئ الرأس قليلاً من الهيبة.
كان كل من يراه يشعر بالسكينة، وكأنه يأتي من صلاتين: صلاة الفجر، وصلاة الرضا.

انتشرت أصوات النساء من خلف الخيام:

يا الله بارك للعريس...يا ساتر يا حليم...بارك ليهم بالدرب القويم..

💫 كلمة الشيخ الطاهر أمام الجموع

وقف الشيخ الطاهر أمام الناس، وقد تحلق حوله الصبية والكهول، ومسح كفَّيه بالدعاء، ثم قال بصوتٍ عميق يملأ الفضاء:

يا أهل أم حجل... الليلة ما بنلف الكلام، الدنيا معانا وعلينا...لكن الليلة ربنا بستُر ولدنا تاي الله بأجمل سترة في الدارين: سترة الحلال، وستر المحبّة الصادقة.

وأضاف الشيخ وهو يرفع بصره إلى القمر:

البيوت ما تُبنى بالطوب بس... البيوت تُبنى بذهب القلوب...واليوم مكتوب: تاي الساكن قلب الناس هنا، والسِرّة البي قلبها ما تكلَّم إلا بالدعاء النضيف...
اللهم ارزقهما بركة في الأرض...واجعلهما لبعض سترًا من كل شيء، إلا الموت....وكعادتهم، ارتفعت أصوات الرجال:

آآآمييييين.

👰 دخول العروس على وقع الدلوكة

في منتصف الليل، دخلت «السِرّة» وسط زغاريد النسوة، في ثوبها الأخضر المطرّز بالذهب . نفس الثوب الذي كانت تحضّره منذ بداية الخطبة.

كانت تمشي ببطء، وكأن كل خطوة تحفظ لها ذكرى أمها الراحلة «أم سترين» التي غابت الجسد، وحضرت الدعوة.

وقفت إلى جانب العريس، ورفعت رأسها له بابتسامة تشفّ عن دمعة صافية، وبادلها تاي الله نظرة حبّ عصيّة على الكلام:

أنتي المنزّل... وأنا الدَّرْب....

تسلّلت خلفهما الحاجة عِشّة وقالت:

والله الليلة بكت السماء، وضحكت الأرض.

🎁لحظة الأم مع السِّرة

انتهى الزفاف، وجلس العريس والعروس يتبادلان الدعاء، بينما تقدمت «سعاد» بخطوات خفيفة نحو السِّرة، وجلست أمامها، ومدّت يدها، كمن يسلم مِفتاحًا خفيًا:

بنيتي... تاي الله انتِ أهلو وبيتُه... ما أوصيك إلا على الدعاء والتسامح...زولك دا لو شقّ الأرض بقدميه... يكون قلبك سنده... وإن غاب في سفر غصبًا... خلي يدك دافئة تنتظرو.

لم تتمالك السِّرة نفسها، وقامت من مقعدها، واحتضنت أمّ تاي الله في مشهد صامت، أبكى الحاضرين بدون صوت.

قالت سعاد وهي ترفع رأسها:

إنتِ لي يا بتي... وأكثر من ودّ الدنيا.

إعلان السفر القادم

قبل أن يغادر آخر ضيف من الحفل، وقف **الناظر فضل السيد** معلنًا للجميع:

بعد أسبوع... يمشي ولدنا تاي الله ، وبنتنا السِّرة، إلى الإمارات... دعوة عمل ودّراسة...لكن قبل يمشو... نحنا كلُّنا ندّعي من هنا لي دبي...اللهم افتح لهم من حيث لا يحتسبون.

تعالت الدعوات، وتردّد صوت العجائز:

اللهم على نياتهم... بسط عليهم رزقك.

وفي الخلف، كانت الساقية تدور ببطء، كأنها تحفظ خطى الليل، وتحمل معها بريق ضوء الحكاية التي بدأت كحبّ في الحِلّة... وصارت وعدًا في السفر.

وقد وُثق الزواج، واستقرّ الفرح، واغتسلت الحكاية بلون السفر... والتجهيزات للرحلة القادمة أصبحت واجبًا يكمّل الفرح، ويختبر
الصبر
.

📖الفصل العشرون

زواد السفر... ورسالة تغيّر مسار البداية

مطلع الفصل: ما بين ختم الجواز وتسليم الدعاء، تتدحرج الأيام كحبات مسبحة في يدٍ مطمئنة؛ كلّ حبةٍ تقول: على بركة الله.

منذ الصباح الأول بعد الزفاف، تحوّل بيت **الناظر فضل السيد** إلى خليةٍ لا تهدأ.

الحاجة **عِشّة** تنسّق «الزّوّادة»: تمرّ بركاوي واخر قنديلا ، فول سوداني، ويكة شطة قبانيت ، كسرة ملفوفة في قماشٍ أبيض، وشيء من «الدكوة» المحمّصة؛ أما **السِّرة** فكانت تُعِدّ حقيبتها الصغيرة بعنايةٍ لا تخفي ارتباك الفرح: ثوبٌ أخضر خفيف، حجاب أبيض، ودفترٌ بجلدٍ بُنّي كتبت على غلافه» :**بوح السفر**.

في ناحية الحوش، جلس **تاي الله** مع **سراج** و**حاج مختار** و**الشيخ الطاهر** يُراجعون قائمة الأوراق: جوازات السفر، الدعوة الرسمية، خطابات التعريف من «المسيد» و«المشروع»، وصور شخصية التُقطت على عجل في «مدينة الحصاحيصا.

قال الشيخ الطاهر وهو يقلب الدعاء بين أصابعه:

السفر يا ولديّ... يلزمو صدق النيّة قبل صدق الورق...إن نَوَّر الله طريقكم، ما بتخافوا من ظلّ، ولو طال.

ابتسم **تاي الله** وأشار إلى قلبه:

القلب حاضر يا شيخ... وفيه دعاء أمّي والسِّرة.

هزّ **سراج** رأسه ضاحكًا:

وما تنسى دعائي أنا... دعاء اللزوم وقت اللزوم**!**.

ضحك المجلس، وانحلّ توتر الصباح.

🧕قرار الأم... وقبلة على جبهة الوداع

قبل الظهر بقليل، دخلت **سعاد عبد الرحمن** – أمّ تاي الله – في ثوبها الأسود الأنيق، وقد بدا عليها سكونٌ يشبه قرارًا اكتمل. جلست قرب عنقريب الناظر، وقالت بصوتٍ رقيق:

يا سيادة الناظر ... أنا قراري اتاخد... ما بمشي معاهم...حأرجع لمكاني... قلبي معاهم، وبيتي ليهم متى رجعوا... والبلد دي بتعرف تنتظر وتستقبل.

انحنى الناظر برأسه احترامًا:

بيتِك في أم حجل مفتوح على الدوام... وقرار الزول في حياتو رُشد، ما قَطيعة.

اقتربت الأم من السِّرة، وضمتها إلى صدرها، ثم وضعت قبلةً على جبهتها:

يا بتي... إنتِ عكّازي في الغياب...إن غلبتك الدنيا، افتحي المصحف... وإن ضاقت عليكِ المدن، وسّعي قلبك... والباب دايرك ترجعو عليه كِتاّبة فرح.

ردّت السِّرة بدمعةٍ وابتسامة:

في عينكِ يا يمّة... ما بنعرف الضياع.

التفتت الأم إلى تاي الله، وحدّقت طويلًا في ملامحه التي صقلتها المحنة والفرح:

يا وليدي... الرِّجال سترة للبيوت... والبيوت سترة للرِّجال... لا تتأخر عن صلاتك... ولا تتأخر عن وعدك... وإن طلبت الدنيا فِداك، ادّيها تعبك... ما تدّيها قلبك.

وضع تاي الله جبينه على يدها:

دعوتك زادي في الحل والترحال .. هي البتوفقنا.

✈️طريق المطار... وأجنحة من تراب ونور

تحرّكت «الهايلوكس» في العصر نحو المطار، تقلُّ **تاي الله** و**السِّرة** و**سراج** و**حاج مختار**.

مرّوا على «المسيد» أولًا؛ قبّل تاي الله يد الشيخ الطاهر، ووضعت السِّرة كفّها على المصحف وخزّنت في روحها برد الآيات.

عند آخر الحِلّة، توقّفت العربة لحظةً عند الساقية؛ لمعت الدواليب في ضوء الشمس الأخير كأنها تلوّح :**أمضوا... والباب لا يُغلق**.

قال حاج مختار وهو يحدّق في الأفق:

الزمن ماشي... والغُربة بتختبر القلب... لكن القلوب الواجفة، ربّها قريب.

شدّ تاي الله على يد السِّرة:

نِتونس بالدعاء... قبل التذاكر.

ابتسمت:

ومهما بعدت المسافة... المسيد قريب.

📱الرسالة الصوتية... حين يتكلم القدر بلهجةٍ محبوبة

في صالة المغادرة، وبينما تُنجز الإجراءات، رنَّ هاتف الناظر. نظَرَ إليه ثم ناولَه لتاي الله:

من رقم إماراتي... شغِّل يا ولدي على المسمّع.

ضغط تاي زر التشغيل؛ جاءَ الصوت واضحًا، دافئًا، واثقًا:

السلام عليكم يا أهل أم حجل... أنا **(ود النِّمير)** من أبوظبي...بشِّركم إن الشراكة اتوسّعت، وبقينا محتاجين لمكتبٍ صغير في الشارقة...والشرط

الأشطر في الاتفاق:

تاي الله يكون مسؤول التشغيل الميداني؛ والسِّرة تكون مسؤولة التوثيق والانتاج الإعلامي للمشروع: كتابة، تصوير، أرشفة، لوحات تعريف... لأنو الحكاية ما بس زراعة... الحكاية رواية بلد بتِتكتب بأيديكم. والتذاكر والمِقام والسكن الأول علينا... على بركة الله... ننتظر حضوركم بعد بكرة بملفّ صغير عن »**مشروع الساقية الجديدة** :«فكرة – هدف – خطة 90 يوم – احتياجات – أثر اجتماعي.

وسلامي للشيخ الطاهر... وللناظر.

ساد صمتٌ تَحَوَّل في لحظة إلى تكبيرٍ خافت:

الله أكبر... الله يتم على خير.

رفعت السِّرة يدها كأنها تمسك بالخيط الذي يصل بين «المسيد» والمدينة:

كتابة المشروع... هذه قِسمتي«

قال تاي الله وهو يبتسم بثقةٍ مطمئنة:

والتشغيل... هذه قِسمتي.

هَمَسَ سراج:

وأنا... قِسْمتي المِقْلَع... أي حاجة ناقصة، أكمّلها!.

ضحك الجميع، وانزاح القلق .

بذرة خطة التسعين يومًا

على مقعدٍ قرب البوابة، فتحت السِّرة دفتر «بوح السفر»، وكتبت العناوين الأولى بخطٍّ رائق:

1. **الفكرة** :ربط «الساقية الجديدة» بتقنيات ريّ موفّرة، والتوثيق اليومي بالقلم والصورة.
2. **الهدف** :مضاعفة إنتاج القمح والقطن 30% في موسمٍ واحد، مع تدريب 10 من شباب الحِلّة على أساليب التشغيل والصيانة.
3. **خطة 90 يومًا**:
   - الأيام 1–7: استقبال – سكن – تهيئة – شراء قطع – ورشة تعريف.
   - الأيام 8–30: تركيب وتشغيل أولي – جدول ري – توثيق مرئي ونصي أسبوعي.
   - الأيام 31–60: تحسين كفاءة – معايرة وقود – تدريب دفعة أولى – تقرير وسطي.
   - الأيام 61–90: توسعة خريطة الزراعة – تدريب دفعة ثانية – خطة توريد – تقرير ختامي.
4. **الاحتياجات** :مضخة رئيسية + قطع غيار، عدّادات استهلاك، حقيبة تصوير، حاسوب محمول، اتصال إنترنت ثابت.

5. **الأثر الاجتماعي** :وظائف مباشرة لخمسةٍ على الأقل، دخل موسمي للأسر، أرشيف بصري لصناعة قصة »**أم حجل** «في الإعلام المحلي.

نظرت إلى تاي الله:

أكتُبُها... وكأنّي أكتب رواية.

قال:

واكتبي الفصل الأول... من قلب الساقية.

🌙ليلٌ على جناح الطائرة... وفجرٌ ينتظر التوقيع

حين أُعلن النداء الأخير، تعانقوا على عَجَل:
قبّل تاي الله رأس الناظر، وربّت حاج مختار على كتفه:

إذا ضاقت المدينة... المسيد واسع.
وضع الشيخ الطاهر كفّه على قلبيهما:
اللهمّ احفظهما... اجعل سفرهما طاعةً، ورجوعهما بشارةً.

أمسكت السِّرة يد أم تاي الله، فشدّت الأم عليها:

روحي يا بتي... واكتبي للناس إنّ الستر يمشي على قدمين.

سارا نحو البوابة، كتفٌ إلى كتفٍ، كأنّ الطائرة بابٌ آخر من أبواب «أم حجل» .

وقبل أن يغيب صوتهما، سُمِع تاي الله يهمس:

نِسافر... ونِرجع... ونزرع سيرةً، قبل القطن.

أجابت السِّرة:

ونحكي... ونوثّق... ونخلّي للريح حكايةً عن ستر الله في قلوبنا.

انغلقت البوابة بهدوءٍ يشبه وعدًا.

جهوزيّةٌ بلا تردّد، ودفترٌ كُتب فيه «بوح السفر»، ورسالةٌ جعلت البداية تشبه كتابًا مفتوحًا: نصفه من ترابٍ وماء، ونصفه من ضوء مدينة على الخليج .

📖الفصل الحادي والعشرون

الشارقة... وبدايات الساقية الجديدة على أرضٍ بعيدة

مطلع الفصل: للحياة طرق كثيرة، لكن بعضها يطلب منّا أن نحمل رائحة الطين في جيبنا كي لا نضيع بين أبراج الزجاج، وأن نؤمن بأن الساقية يمكن أن تدور حتى في مدينة من ضوء.

كان مطار الشارقة مضاءً كأحلام المدن الكبرى؛علامات مضيئة، نداءات متعددة، وجوه آسيوية وعربية وإفريقية تأخذك فكرةً عن الكون المختصر في هذا المكان.

خرج **تاي الله** والسِّرة من البوابة، ووجدا رجلاً يحمل لافتة كُتب عليها:

مرحبًا بكم مكتب **ود النمير** للاستثمار الزراعي.

اقتربا، وسلّم تاي الله على الرجل، الذي عرف نفسه بابتسامة ودود:

أنا **صابر ود جبر الدار** ...موفَّد ود النمير لاستقبالكم... سيارتنا قريبة، وسكنكم جاهز في منطقة اليرموك... نتونس في الطريق.

جمع الرجل حقيبتهما، وسار أمامهما نحو المخرج، متحدثًا بصوت هادئ:

ود النمير عنده شغف شديد بالمشاريع الخضراء... ودايركم تكونوا جزء من نقلة كبيرة... زراعة، وتوثيق، وواجهة ثقافية جديدة للريف السوداني.

ابتسمت السِّرة لقول «واجهة ثقافية»، لأن قلبها بدأ يفهم الآن أن الرواية قد خرجت من الورق، وبدت تتنفس في الواقع.

🚗الطريق إلى الشارقة القديمة

في السيارة، كانت مدة المسافة قصيرة، لكن مشاهدها طويلة في أثرها:

عمارات بألوان الرمل

محال عربية وأجنبية

نساء إماراتيات بعبايات أنيقة

ومآذن تعلن وحدانية الله بلغة غريبة، وألف مألوف

قال ود جبر الدار وهو يقود:

ودي الشارقة، أمّ الثقافة والفكر... هنا تلقى ناس بيكتبو في المكتبات، وناس بيزرعو في المدن... وناس زيكم... بيجمعوا بين الكلام والزرع.

ردّ تاي الله:

والله يا أخ صابر... غرتنا من الساقية ما بتنساها العين، بس برضو لو عندنا ذِكر هنا، بيفتح الله بين الدارين.

تدخلت السِّرة، وهي تحدّق من النافذة:

والتوثيق داير نَفَس... البلد دي بتديك ضوءَها، لكن لازم تديها من قشة أهلك.

ضحك الرجل وقال:

ود النمير منتظر كلامكم دا تحديدًا.

🏠السكن الأول... وبيتٌ من ضوءٍ وذكرى

وصلوا إلى شقة بسيطة في عمارة متوسطة؛ ثلاث غرف، صالة كبيرة، وسجادة بلون الكركم.
رائحة الهبهان تأتي من «البخور الكهربائي» المشغّل بجانب الباب.

قال صابر:

دي حتكون راحتكم الأولية... وحاجة بسيطة إلى أن يتقرر يعرفو وين مكتب العمل.

تفقد تاي الله المكان وهو يتنفس ببطء:

بيت بعيد... لكن على قد البركة.

بينما وضعت السِّرة يدها على نافذة تطلّ على مسجد البلاط الأصفر قرب الشارع:

في كلّ بيتٍ قريب من صلاة... يكون فيه أمان.

💼أول اجتماع عمل مع «ود النمير»

في مساء اليوم التالي، وصل تاي الله والسِّرة إلى مكاتب ود النمير في «المنطقة الحرة»، وكان المكتب عبارة عن حجرة واسعة، مزينة بصور نخيل وطائرات وشهادة استثمار.

ظهر **ود النمير** من حجرة داخلية، بملامح ودودة وهيئة مُطَمئنة، وصوت فيه أثر السنين:

مرحبا بالناس العزاز... والله نورتونا.

صافح تاي الله بحرارة، ثم التفت إلى السِّرة قائلًا باحترام:

مرحب بيك يا بت البلد... نحنا بنشتغل هنا، لكن بتروح معانا رائحة الحِلّة كل يوم.

جلس الجميع حول طاولة خشبية، وقال ود النمير مباشرة:

هدف الاجتماع دا بسيط... أول 3 نقاط أساسيّة:

1. تحديد دور كل واحد في «مشروع الساقية الجديدة»
2. اقتراح اسم للمبادرة الإعلامية
3. التحضير لعقد شراكة رسمية داخل الدولة

فتح تاي الله ملفًا خفيفًا أعدّه:

أنا مسؤول عن تشغيل خطوط المياه الموصلة، وتنسيق التربة والسماد، وحساب الحوجة اليوميّة، لو تم توفير المعدات.

ثم دفعت السِّرة دفتر «بوح السفر» نحو ود النمير وقالت:

وأنا مسؤولة عن التوثيق، والتعريف، وبناء صوت المشروع... بالكتابة والصورة... بصيغة "ساقية تمشي وتغني."

هنا، ضحك ود النمير، وهز رأسه وهو يقول:

ساقية تمشي وتغني... دا اسم مبادرة ما بينسى زول.

📷الإعلان الرسمي الأول

بعد انتهاء الاجتماع، اقترح **ود النمير** القيام بمشهد تصويري تعريفي صغير داخل المكتب:

جلس تاي الله أمام خريطة المشروع.
وقفت السِّرة بثوبها الأبيض البسيط تحمل ملفها.
وقالت في الكاميرا بصوت مشبع بالبساطة:

من أم حجل إلى الشارقة... من الساقية إلى الشاشة...نحكي للعالم عن زراعةٍ ترجع جيب المزارع... وقصّةٍ تبدأ من ضوء القمر، وتمشي مع صوت المويه

.

صافحها ود النمير بعد التصوير وقال:

والله يا السِّرة... دايرينا بعد دا تكوني مرساة الكلام النضيف.

أول خطوة نحو مؤسسة الثقافة والتوثيق

وافق الجميع على إطلاق «ساقية تمشي وتغني» كاسم للمبادرة

وتم تحديد اليوم التالي لزيارة موقع الإنتاج، تمهيدًا لتأسيس أول مكتبة صور وفيديو للريف السوداني... على أرض

إماراتية !

📖 الفصل الثاني والعشرون

زيارة الموقع... حين تمشي الساقية خارج ترابها

مطلع الفصل: لا تتوقف السواقي عن الدوران حين تنتقل من أرضٍ لأخرى؛ هي تبقي على الماء، لكن الغربة قد تجعل ماءها يحمل شيئًا من الوجدان.

في صباح اليوم التالي لوصولهما إلى الشارقة، انطلقت سيارة المشروع باتجاه العيّنات الأولى من «أراضي الزراعة الذكية» التي كانت ضمن خطة ود النمير.
السماء صافية، والشمس خفيفة، وأكاسيا المدينة تتداخل مع رائحة «قهوة الهيل» المنتشرة قرب المخازن المجاورة.

ركب **تاي الله** بجانب مندوب الفريق المحلي، وهو شاب إماراتي يدعى **سالم البلوشي**، يعمل في التسويق الزراعي. جاء سالم مرحبًا وقال:

أنا شريككم في الآلة والكلمة... أنت تاي الله في الأرض... وأنا سالم في السوق... والسِّرة في الوجدان.

ضحك الجميع، وقالت السِّرة:

ومعاك بنمشي نزرع، ونوثّق، ونسوّق... لكن بالترتيب.

وصلوا إلى موقع الإنتاج: مساحة أرض ممهّدة، تمتد على بضعة افدنه ، فيها خزان ماء مُعالَج، ومضخة حديثة، وبعض أشجار المورينغا كزينة أولية.

تجوّل تاي الله بين خطوط المحاور الترابية، وعيناه تلتقطان تفاصيل الأرض الجديدة:
بعض الرمال، بعض الحصَى، وبعض الخُضرة المتسللة على أطراف السور.

قال بصوتٍ يسمع فيه لمسة أوّلية من الحنين:

الساقية في أم حجل كانت تدور بلاّ صوت المحرّك... والميّة تمشي براها... هنا... دايرين نسمع صوت الترس، لكن نخليه ينساب زي الساقية... ما يقطع روح الأرض.

ردّ سالم، وهو يشير إلى المضخة:

نرسل للناس صوت المكنة... وبالضوء نخلي التراب يتكلّم.

📷أول لقطة سينمائية... وعودة الساقية بالبث

قالت السِّرة:

أنا دايرة أبدأ تسجيل صورة "الساقية الجديدة"... من عيون المزارع والغريب.

جهّزت هاتفها على حامل بسيط، وبدأت التخاطب مع العدسة.
كانت الكاميرا تتحرك، فتظهر خطوط الري، ومعها كلمات السِّرة:

دي موش بس ساقية... دي فرصة... ومبدأ...يا ناس أم حجل... يا ناس الحصاحيصا... إذا مشينا بعيد بنقرب ليكم حكاياتكم...
إذا زرعنا هنا... حنحصد هناك... والرزق ما بخون زول إلا لو خان النية.

أومأ **ود النمير** بإعجاب وهو يتابع من خلف الكادر:

الكلام دا داير ينشر... والله دايرين نسمعو في كل استراحة، وفي كل قعدة في البلد.

🌍 اتصال من أم حجل... وأثر الجسور الجديدة

وبينما كانوا في التصوير، رنّ هاتف السِرّة؛ كان الرقم سودانيًا، صوت الحاجة «عِشّة» ينساب من الجانب الآخر:

يا بتي... سمعتو عنكُم في الراديو... قالو دوخّتكم السَّفر... لكن خلى صوتنا يمشي براكُم.

ردّت السِرة، وعيناها مبتلّة:

يا يمّة... السّفر ما داير صبر بس... داير محبّة مُصدّقة... أنا بحكيلكم كل شيء... قبل ما يحصُد القطن.

قهقهت الحاجة من هناك:

رسلتي النسمة... جات مع صُبح الحليلة.

🌾👦لقاء مع شاب «يشبه النهر«

وبعد تجوّل قصير، لمح تاي الله شابًا سودانيًا في زيّ العمل، يبدو عليه الهدوء والجِدّ.
كان الشاب يُعدّل في صنبور صغير موصول بخط ريّ أساسي، ويراقب تسريب المياه.

اقترب منه تاي الله، وسأله بهدوء:

من طرف منو إنت؟.
رد الشاب:
اسمي **الزين عمر الحسن** ...من المناقل. جيت هنا قبل شهرين... عن طريق ناس مشروع التعاون الزراعي.

نظر إليه تاي الله بإعجاب:

الزين؟ سميت باسم الكاتب، ولا الصدفة؟.

ضحك الزين بأريحية:

أبوك قدّر لي دا؟ الواحد قال لما قالوا لي في ناس جايين من أم حجل... حسّيت الأرض حا تمطر حكايات.

وتابع الزين:

أنا بشتغل هنا في "الحوض التجريبي"... وعندي فكرة عن مخاطر الماء المالح، وعاوزين نجرّب تقنيات الرش القطري... لو بتتوافق مع أساسك في الري الحداد.

وقف تاي الله قربه، ووضع يده على كتفه، وقال:

جيت في بابك... يا زين... المسيد مسيدنا، والأرض تربتك.

نظرت إليه السِرّة، وأدركت في اللحظة تلك أن العمل لم يعد قصة اثنين فقط، بل صار فرصة لتلاقي شموس الشتات بظلال الجذور.

📌 تكوين الفريق الأول

قبل المغادرة، اجتمع الأربعة في ظل نخلة صغيرة مزروعة حديثًا بالركن:

تاي الله: مسؤول تقنية الري ودراسة نوعية التربة
السِرّة: مسؤولة التوثيق والهوية الإعلامية
الزين: مسؤول التجارب الميدانية والمراقبة الفنية
سالم: مسؤول العلاقات والشراكات والتسويق

قال **ود النمير** وهو يضع الورقة على الطاولة الخشبية المستعارة:

دا الفريق الأول لمبادرة "ساقية تمشي وتغني"... نفتح باب الشغل برسالة وبخطة... وبعد دا بنحكي للعالم: إنو الريف بلّغ سلامو... عبر الصورة، والعلَم، والعرق.

وقد اكتملت نصف الحكاية عند نقطة الوصل بين التراب والمدينة... صار للصورة صوت، وللجذور فروع، وللغربة معنى يتجاوز الألم إلى البناء.

وضع أول حجر للإعلام: رسالة إلى أم حجل عبر قناة اليوتيوب
تسجيل حوار مع الزين حول الجذور
اتصال مفاجئ من أم تاي الله... يحمل بشرى غير منتظرة !

📖 الفصل الثالث والعشرون

أول بثّ... وكلمة إلى تراب الوطن

مطلع الفصل: تبدأ الحكايات غالبًا في مجلس صغير، لكنّها تمشي ببركة الصدق حتى تقف في زوايا لم تتوقع أن تُعرف فيها، ثم تتنفس عبر شاشة لا تتجاوز كفًّا.

في مساء اليوم الثالث لوصولهم، جلس الفريق الأول لمبادرة «ساقية تمشي وتغني» في مكتب صغير داخل مبنى **ود النمير**.
كان الحاسوب أمامهم، والكاميرا قيد التشغيل، وفرش الأرضية يحمل رائحة المعمل والريحان في آن واحد.

قالت **السِّرة**، وهي تضبط صوت الميكروفون:

اليوم بنسجّل أول فيديو رسمي للقناة... رسالتنا لأهل أم حجل، ولكل زول شايف إنو الغربة بتنسي الجذور.

جلس **تاي الله** بجانبها، وعلى وجهه ملامح رجل يعرف أن صوته سيتجاوز حدود الغرفة إلى أفئدة بعيدة.
وفي المقعد المقابل، كان **الزين**، مرتديًا قميصًا بسيطًا، وبيده «دفتر الخطة الزراعية» مكتوبًا عليه:

ورشة الريّ، الموسم الأول – تجريبي

بقيادة تاي الله والسِّرة والزين

دخل **سالم البلوشي** بملفٍ وعبارة تحفيزية باللهجة الخليجية:

وهذي المنصّة لكم، والكاميرا تشتغل... قولوا اللي في القلب، وإحنا نوصله جامد.

🎥**التسجيل الأول: جسور ما بين الساقية والغربة.**

استقرت السِّرة أمام الكاميرا، وبدأت تتحدث بصوت هادئ يمزج الريف بالتاريخ والرجاء:

من أم حجل... من قرية الساقية والطمأنينة... من أرض الحكاية والقيم...
نمشي الليلة نكتب فصل جديد من رواية ما سمحنا للغربة تمحوها...
ساقية ما انقطعت، لكنها انتقلت من أيدينا إلى الفكر، ومن ترابنا إلى هذه الأرض...
وغدًا نغرس فيها الخير ونبعت ليكم رائحة النماء بالسلام والتصوير...
ولأنو الكلمة صوت الأرض... بنوثّق اليوم عشان تقولوا بعد عمر: عندنا جيل ما نسي البلد.

ثم أكملت:

ويا أهلنا... أوصونا ما ننسى النية الصافية... ودعوة أم الحسن... وتراب "دار الناظر" اللي كان سندًا قبل السفر...
وها نحن، بنبني من هنا... بس على سِيَرِكم ورَحِمكم ودعائكم.

بدا في عينيها شجن خفيف، لكنه شجن يعرف كيف ينتمي إلى الفرح.

قال سالم، وهو يصفق:

أبهرتموني... دا خطاب إعلامي ما يقل جماله عن لوحة مائية!.

ردّ الزين بابتسامة عفوية:

الساقية ما شاء الله تسوق الكلام فوق اللِّسان، زي ما بتسوق الموية فوق الأرض.

🌾👦لقاء حواري مع «الزبون الأول«

جلس تاي الله إلى جانب الزين وسجلا حوارًا بسيطًا حول تجربتهما الأولى في موقع الأرض:

تاي الله :الزراعة ما بس مهنة... الزراعة رؤية، وارتباط بين تراب وقلوب. نحنا جينا هنا عشان نعيد الرطوبة لقلوب المغتربين... بنوريهم إن البذرة بتمشي معاهم وين ما رحلوا.

الزين:الزرع محتاج مياه، لكن محتاج دعاء قبل كل حاجة. وكنت أقول في نفسي: لو الناس دي جات بحلمها من البلد... أكيد الموية هنا بتصير منسابة زي سواقي أم حجل... بس نصبر، ونعدل الري، والستر من الله

.

ابتسم تاي الله، وقال:

والله يا الزين... نحنا جينا نربط تراب البلد بقلب المغترب... والباقي على توفيق الله.

🔔مفاجأة صوتية من أم تاي الله

قبل أن ينتهي اليوم، وصل تسجيل صوتي من **سعاد عبد الرحمن**، أم تاي الله. فتحته السِّرة كي يسمعه الجميع، فكان الصوت هادئًا، دافئًا، وفيه حنان البيت:

يا تاي... يا وليدي... أنا بسمع بكلامكم في الموبايل عند ناس المحل... وحسّيت كأني كنت قاعدة جنبكم في المكتب دا... شفتك بتبتسم... وسمعت ضحكة السِّرة... وقلت: الدنيا لسه فيها ناس بتزرع في الغربة... فكونوا بخير... وبخاف على نفسكم، لكن بخاف من زعل ربنا أكتر... والبيت داير صوتكم، بس صبر شويّة... الدنيا ما بتكسر زول، إلا لو كسر بوّابتها.

عمّ الصمت، ثم قال الزين بملامح متأثرة:

يا الله... الكلام دا بيذكّرني بمكالمات أمي من المناقل... كانوا بقولوا نفس الحاجة... ابني ما تبعد من رحمة ربك.

ضحك تاي الله، ومسح دمعة سريعة:

شوفوا... حتى البكاء ببركة، زي البذرة... حرّكت فينا مشاوير صادقة.

بداية الخطة... بين ليل السُّكن ونهار العمل

في تلك الليلة، كتب الفريق على لوح المكتب:

خطة الظهور الأول — أسبوع 1:

1. تسجيل فيديو تعريفي للمبادرة
2. نشر أول «بودكاست الريف» مع تاي الله والزين
3. تجهيز منشور دعائي يدعو الناس للاشتراك
4. كتابة مقال افتتاحي بعنوان: «من الساقية إلى الشاشة»
5. تحديد موعد أول بث مباشر على إنستغرام من الموقع الزراعي

قال **ود النمير** وهو يقف عند الباب:

يلا يا ناس... بقيتو مشروع يمشي، ويسعى، وينطوي في قلوب الناس... والله العظيم، عندي يقين إنكم ما حترجعو للسودان بس ب«الزرع»... حترجعو ومعاكم قصّة... بتلمّ الناس على كلمة طيبة وعيش نظيف.«

قد بُث الصوت، وسُجِّلت الصورة، وبدأت الساقية تدور في مدينةٍ لا تعرف الفجر الطيني، لكنها تؤمن أن الماء يحمل دعاء الأم مهما ابتعد .

📖 الفصل الرابع والعشرون

بثٌّ حيّ... وتوقيع يحمل سرًا من الماضي

مطلع الفصل: ما بين شاشة صغيرة في غرفة بسيطة، وصوتٍ يتنفس من بين نخيل القرية، يولد البث الأول. كأن العالم صار يدور في مسافةٍ من قلبين: قلب في الغربة، وقلبٌ في انتظار.

في مساء اليوم الخامس، جلس فريق «ساقية تمشي وتغني» في المكتب نفسه، أمام شاشة حاسوب تُرسل وجوههم إلى العالم عبر أول بث مباشر من الشارقة إلى أم حجل.

كان **تاي الله** يرتدي جلبابه الأبيض، مُتسندًا على كرسي خشبي، بينما جلست **السِّرة** بقربه، تضع دفتر بوحها جانبًا، وتحاول ضبط الضوء في الخلفية.

أما **الزين** فوقف وراء الكاميرا، يراقب زاوية التصوير، فيما تولى **سالم البلوشي** مهمة ضغط زر الانطلاق.

قال سالم وهو يعدّ الثلاث ثوانٍ قبل البث:

نعدّي، ثلاثة... اثنان... واحد... أنتو في الهواء.

افتتاح البث الأول

قالت السِّرة بصوت يحمل احتمالات الزمان والمكان:

السلام عليكم يا أهل الريف، ويا ناس المدينة... ويا كل زول عندو وتر يجري بين قلبو والبلد...نحن هنا في الشارقة... من مكتب صغير، لكنه مليان بروح أم حجل...معاكم في أول بثّ حي من مبادرة «ساقية تمشي وتغني»... نحكي ليكم يا أهلنا عن شغلنا، وعن سواقي الأرض، وسواقي الروح.

انتقل الميكروفون إلى **تاي الله**، الذي استهلّ الكلام ببساطة أهل الأرض:

السلام عليكم... يا ناس الخير... ويا رفقة الطريق...بنقول ليكم: نحنا جينا من البلد عشان نتمّ زود الكلام بالجد...شغل ماشين بيهو بإذن الله، وهنا في أرض الناس ديل، بنزرع، وبنكتب، وبنرجع ليكم علم... وبركة... وحكاية.

تعالى التعليق في البث من الموبايلات والأجهزة اللوحية في أم حجل:

«نسمعكم... وعيوننا بْتَبكي فَرَح» .
«يا ريتنا معاكم»...
«الله يرد غُربتكم بخير»...

حتى الحاجة **عِشّة** أرسلت صوتها، وبثّه الزين عبر مكبر الهاتف:

«يا بتي... سمعنا نفسكم... خلى الجيران كلهم يفرحو... أها تقرير أم حجل وصل ليكم؟ عندنا أخبار جديدة من الترعة»...

ضحك الفريق، وواصل السرد بين شجنٍ وبهجة، قبل أن تختم السِّرة البث:

«دا كان أول تواصل بين الساقية في الغربة... والطين في البلد... إن وجدتوا فينا صدقًا... ادعوا لينا بالقبول والنور...وإن فاتنا شي... اكتبوه في قلوبكم، ولْقانا الجاية نحكيهو» .

أغلق سالم البث، وقال مبتسمًا:

«أشهد... هذه أول ساقية حقيقية مرئية في الإمارات» !

💌رسالة مفاجئة... وتوقيع غير متوقّع

بعد انتهاء البث، وبينما كانت السِّرة تُراجع التعليقات، دخل البريد الإلكتروني الأول من حساب غير مألوف، يحمل عنوانًا بسيطًا:

رسالة إلى السِّرة – من أختك في الطريق

فتحت الرسالة، فقرأت ببطء:

أيتها العابرة بحروفنا منذ زمن طويل...يا من جعلتِ الكتابة سقاءً لحنيننا...

لم أعرفك وجهًا، لكني أعرفكِ قلمًا حين مررتُ على مدوّنتك «بين الساقية

والسماء»، قبل شهور...

وأنا هنا، أشاهدكِ الآن... أحسست أن بيننا خيطًا من السرّ والحبّ الأبيض...

توقيعي :**ختام عبد الحليم– المنصورة، مصر**

وعمّا قريب... سأزور الإمارات، وأودّ أن ألتقي بك... أشعر أنّ بيننا مشروعًا لم يولد بعد.

ارتبكت السِّرة، وحدّقت طويلًا في التوقيع.

ثم أغلقت الجهاز بهدوء، وكتبت في دفترها:

من بين الناس... من منابر بعيدة... يأتينا صدى يشبه الدرّ... فهل هذه الأخت قد تكون الصفحة المقبلة؟ هل نكون على موعد مع توسيع الساقية، دون أن نشعر؟.

🧪 التحدي الأول في الزراعة: مشكلة ملوحة المفاجأة

وفي صباح اليوم التالي، عاد الفريق إلى الأرض لاستكمال التجارب.

بدأ الزين في فحص التربة بطريقة رقمية، فلاحظ على لوحة القراءة أنّ نسب «الملوحة» ارتفعت قليلاً بعد تشغيل نظام الرش الأولي.

تعجّب تاي الله، وقال:

ما متوقّع دا في بداية التجربة... هل في تسريب في الخزان؟.

رد الزين:

واحد من المضخات بتسحب من خزان احتياطي أقدم... ويأخد مياه فيها نسبة أملاح من فلتر قديم.

تدخل سالم البلوشي بنبرة مطمئنة:

الخطأ وارد... نعمل تقرير، نرفعو اليوم، ونشوف ميزانية تحسين مدخل المياه.

سجّلت السِّرة ما حدث، وقالت أمام الكاميرا:

حتى النباتات بتتعلم... ومثلها المشاريع... إذا وقعنا... نقوم، ونسند الفكرة... لحدّ ما تقف واقفة صدق.

قد أصبح الصوت أبعد من الشارقة، وصار التحدّي أقرب من وجه الأرض... وما زال الفريق يعمل بالنية والعرق، كأن البيت لم يغادر الحِلّة قط .

📖 الفصل الخامس والعشرون

عودة الغريب الجميل... حين يلتقي القلم مع الساقية

مطلع الفصل: حين تتقاطع الخطى على أرضٍ جديدة، قد تتحرر الحكاية من إطار القرية، لتصير وطنًا أوسع، حتى لو بقيت الجذور في ذات الساقية.

في مساء يوم الجمعة، وبينما انشغل الفريق في تجهيز وثائق دعم المشروع الزراعي، رنّ هاتف السِّرة، وكان عليه إشعار بتحديث في البريد الوارد:

"ختام عبد الحليم – وصلت دبي"

كان نص الرسالة بسيطًا، يحمل دفئًا صادقًا:

وصلت قبل ساعة إلى مطار دبي. سأقيم في الشارقة ليومين.
أتشرف بلقائك وبالتعرّف إلى مبادرة «ساقية تمشي وتغني.
هل هناك فرصة لزيارتكم غدًا؟

ارتعشت ملامح السِّرة فجأة، كمن يلتقي كلماته السابقة وهي تتجسّد أمامه شكلًا وصوتًا.
همست لنفسها:

بسم الله... يبدو أن الحكاية أكبر منّا... أكبر من أن نرويها وحدنا.

🚪لقاء «القلم» و«الساقية»

في صباح اليوم التالي، جلس الفريق في قاعة الاستقبال بالمكتب.
كانت الساعة 10:15 عند وصول **ختام عبد الحليم**، الشاعرة والباحثة في التراث الذي طالما كتبت عنه، دون توقع أنها ستقابل من يجسّدونه اليوم في عملٍ حيّ.

دخلت بخطوات واثقة، تحمل حقيبة جلد بلون الأرض، وفي يدها دفترا ملون الحواف، كأنها تحمل معها تاريخًا تنتظر أن يلتصق بالراهن.

وقف تاي الله مرحبًا:

السلام عليكم... أختي ختام؟.

ابتسمت بثقة:

وعليكم السلام... نعم، أنا التي راسلت السِّرة... وجئت ألملم الحكاية قبل أن تتساقط على الأطراف.

وقفت السِّرة مباشرة، وقد شعرت بوهج طاقتها:

أهلاً بقصةٍ خُطّت قبل أن تُقال... وأهلاً بزيارةٍ تحوّل الفكرة إلى دهشة.

جلست ختام، وقالت بحماسة هادئة:

قرأت كل ما كتبتم، وشاهدت البث... وتعجّبت كيف لم تلتفت إليكم صحافة المهجر بعد.
أنتم تحركون الساقية... وتجعلونها تُغنّي... وأنا جئت لأكتب هذا، لا لأشهد فقط.

✍️مشهد التدوين وميلاد المنصة الموازية

بعد جلسة التعارف، طرحت ختام فكرة جديدة:

اشراقتكم لا يجب أن تُنشر فقط بصوتكم... بل تحتاج إلى وسيطٍ ثالث، يلتقط المعنى ويسحبه إلى صفحات العرب، و"البوستات"، وملفات المكتبات.
أنتم تزرعون وتوثّقون صوت الريف... وأنا بإذن الله سأكون الجسر بين الساقية والصحف والمنابر والمكتبات.
سأنشئ معكم: "منصة الساقية للكتابة والتوثيق"، تكون مرافقة للبث والمخزون المرئي.

انتبه الزين وقال:

يعني... دا ميراث مزدوج: تراب وصوت؟.

ضحكت ختام:

تراب... وصوت... وقصص، تُكتَب من قلوبكم وتُوقَّع باسمي لأول مرة كشريكةٍ في نشر ما تصنعون.

ازدادت ملامح الفرح في عيني السِّرة، فهي ترى الآن كيف يصبح الريف كتابًا حيًا، كيف تُردم مسافات الغربة بجسور التدوين والتوثيق.

🎬 التحضير لبث «المشترك الأول» بين الإمارات والسودان

بعد انتهاء الجلسة، توجهت السِّرة لكتابة جدول البث:

عنوان البث المشترك:

الساقية تمشي من أم حجل إلى الشارقة – وتعود بالكلام

المشاركون:

- تاي الله (عن الأرض)
- السِّرة (عن الصوت والتوثيق)
- الزين (عن التقنية والتجريب)
- ختام عبد الحليم (عن الأدب والإعلام)
- ضيف من أم حجل عبر الهاتف: الحاجة عِشّة

نقطة محورية في البث:

- رسالة مفتوحة من فكرة فردية إلى مشروع تنموي ثقافي عابر للحدود
- توثيق رقمي يجمع الذاكرة القديمة بالمستقبل الزراعي

🌾 ثقل اللحظة... وعودة القلب إلى الأصل

في ذلك المساء، خرج تاي الله إلى الشرفة المطلة على مسجد اليرموك.
وقف طويلاً مع صوته الداخلي قبل أن ينطق بصدقه الصافي:

ولكن... مكان الحكاية ما زال هناك...في أم حجل...
تحت ظل الساقية القديمة...وفي لوحة الجداري في المسيد.

اقتربت السِّرة، ووقفت إلى جانبه، تبادله نفس الأفق:

لكن الصوت هنا... يجعل التراب يعرف أن له أجنحة.

وقال الزين، وهو يحمل كوب شاي سوداني مع شرائح ليمون:

والله يا ناس... الفن دا ما ساهل... بيعرّض الناس للغياب والحضرة في نفس الوقت... لكن إن شاء الله زولنا العزيز يمشي ويجي... والقصص تمشي قدّام.

اختلط التراب بالخط، والصوت بالكتابة، وُلِد مشروع «منصة الساقية» بجانب «المبادرة الزراعية»، وبدأت الرواية تأخذ بُعدًا ثقافيًا جديدًا يتجاوز السطور نحو منصة وكيان .

الفصل السادس والعشرون

من الشارقة إلى أم حجل... البث الذي جعل الغربة بيتًا آخر

مطلع الفصل: إذا اجتمعت الكلمات القادمة من حقولٍ بعيدة مع موجات الصوت التي تطوف عبر المدن، يصبح الوطن فكرةً مرئية، ويصبح الغياب بوابةً للرجوع.

جلس الفريق في غرفة الاستديو الصغيرة في المكتب، حيث تم إعداد زاوية تصوير لطيفة تحيطها نباتات ظل، وورق مكتوب عليه عبارة:

ساقية تمشي وتغنّي —— مباشر من الشارقة

في الركن الأيسر جلس **تاي الله** يرتدي ثوبه التقليدي الأبيض وعمامة ملوّنة بخيط أخضر؛
وبجانبه **السِّرة** بثوبٍ سماوي هادئ، وحول رقبتها عقدٌ من خشب السِّدر يحمل اسم أمها «أم سترين» محفورًا على جانبه الأمامي.
وإلى يمينهم ظهر **الزين** ببدلته الزرقاء العملية الملطخة ببقع طفيفة من الطين.
أما **ختام عبد الحليم**، فكانت تجلس في مواجهة الكاميرا، وفي يدها دفتراً عليه قصاصاتٌ من شعرها وخلاصة مشاهداتها الأدبية.

افتتاح البث المشترك

بدأ البث عبر قناة «ساقية تمشي وتغني» على يوتيوب وإنستغرام، حيث اجتمع المشاهدون من أم حجل، ومن الحصاحيصا، ومن الشارقة وأبوظبي، ومن عواصم أخرى لم تكن في الحسبان.

ألقى **تاي الله** التحية:

السلام عليكم ورحمة الله... يا أهلنا في البلد... ويا كل زول شايل حَنية الساقية في قلبو...نحن هنا اليوم بنشوف كيف يمشي التراب بالصوت... وكيف الصوت يحمل ظلّ النخلة للمكان البعيد.

ثم ناول الميكروفون إلى السِّرة، التي قالت:

مرحب بيكم... هذا أول بث بين فريق "ساقية تمشي وتغنّي" ومَن ينتظر ثمار هذه الساقية في القرى والبيوت...من أم حجل... إلى الشارقة... شجر واحد، ودعاء واحد... وإن تعددت البلاد.

أضافت ختام ببلاغةٍ أدبية وحسٍّ شغوف:

هنا تتصل الأرض بالحرف... ويتحوّل الغياب إلى مشهد يكتب لحظة حضور...
ليس بيننا من غياب لا يُدرك بالدعاء... ولا من مكان لا يردّ لأهله صوتًا يحمل حنينًا ولُطفًا

.

📞مداخلة من أم حجل... ودمعة على الخط

في منتصف البث، أشار الزين إلى الهاتف المحمول الذي تم وصله بالبث المباشر. كان المتصل هو **الحاجة عِشّة**، التي قالت بصوت خفيف:

السلام عليكم يا وليدي تاي الله ... ويا السِّرة يا بتي...والله نحنا قاعدين في الخور الشرقي، وفي صفوف البنات التحت ليهو الضُلّة، قاعدين نسمع فيكم وعيونا تشرب الكلام زي الموية الباردة.

ضحكت السِّرة بفرحٍ ملموس:

يا يمّة... دا ستر ودعاء... والله الموية قاعدة هنا، لكن عين القلب وين؟ في أم حجل.

ردّت الحاجة بعبارة أحبّ الجميع أن يعيدوها:

الغريب لو جاب معاهو الخير... لغربتو وطن... ولو نسى القلوب... لغربتو وجع... لكن إنتو ولاد وبنات ستر... كل الدعاء معاكم، يا ناس الزرع والقلم.

هنا ارتجفت عين تاي الله بدمعة حارّة، كأنها عصية على الكلام، فجلس يكتب رقميًا في دفتره:

في ناس بتسقيك بموية الكلمة... قبل البئر والطلمبة.

تعليق ختام الحاسم... حين ينطق الشعر بالحكمة

اقتربت الكاميرا من وجه ختام عبد الحليم، التي رفعت رأسها وبيدها ورقة كتبت عليها قبل البث بساعة:

الغريب صَدَّق أن الأرض خلفه، لكن حين غنى، مشى حتّى جاءته الأرض تمشي له...ما بين زرعٍ في غير ترابه... وحكاية لم تولد في بيتٍ من الطين...يمكن للفجر أن يعود من غربةٍ، إذا بقِيَ للصوت باب لم يُغلق.

لم يدرِ أحدٌ كيف سيطر الصمت في اللحظة تلك – إلا أنه كان صمتًا يتشرب الوداعة والعمق.

🔥بدايات الهمّ... ونذير التحدّي

قبيل نهاية البث، دخلت رسالة عاجلة من المشرف الميداني:

تنبيه عاجل: الريّ يجري بمعدل زائد عن اللازم اليوم. شبكة الصرف تواجه انسدادًا جزئيًا، قد يؤثر في مدخل المياه.

قرأها الزين بصوت مسموع، فنطق تاي الله بحزم:

مفهوم، بكرة الفجر نكون في الأرض...عندي إحساس: الليلة البث نجح... وبكرا الأرض حتختبرنا.

ابتسمت السِّرة وقالت، وهي تغلق الدفتر:

هو دا نفس إيقاع الساقية... فرح يمرق من الباب... وابتلاء يجي من الطاحونة.

لقد تحوّل الصوت إلى جسر، والمشهد إلى يقين.
وأصبح الفريق الآن أمام اختبار عميق بين «صوت الناس» و«صوت الأرض»
لكنهم ما زالوا يرددون:

إنّ الأرض، وإن خانت بعض ملوحتها... لا تخون عهد من سقوها بنيّةٍ صافية.

📖 الفصل السابع والعشرون

حين تصمت الأرض... وتتكلم الرواية

مطلع الفصل: ليس كل تحدٍّ يحمل الخطر وحده؛ بعض التحديات تحمل رسالة: هل نكمل الدرب بالنية، وبالعمل، وبالرجاء؟ أو نترك الأبواب تُغلق لصالح صوتٍ خائف؟

لم يكد شمس الصباح تزحف فوق أرض المشروع الزراعي في الشارقة، حتى انطلق الفريق إلى الحقل، يحملون في أذهانهم القلق الذي انبثق في رسالة الليلة الماضية.

كانت الأرض، لأول مرة، تبدو أقلّ تماسكًا؛
خطوط الريّ التي جرت فوقها المياه كانت مشوبة بظلال نمش مائي غير واضحة، وفي المكان الذي يُفترض فيه أن تكون الأرض «رطبة بنعومة»، كانت هناك مناطق خليط بين الجفاف والملوحة.

وقف **تاي الله** في وسط الحقل، وهو يتفحص الخطوط بدقة:

الملوحة وتذبذب المياه معًا... دا ما طبيعي... في شيء في الأنابيب أو الفلاتر ما منسجم.

أجاب **الزين** وهو يفتح غطاء «صندوق التحكم:«

فنّيت جزء كبير من الليل في مراجعة الخزان الرئيسي... لقينا رواسب قديمة في الفلتر الاحتياطي... لكن دا ما وحدو السبب... في ضغط مائي بين الظرفين.

كانت **السِّرة** تقف في الخلف وتراقب بهدوءٍ التوازن بين العلم والفطرة، وبين الأرض وما يريده الرب فيها.

في ناس تقول الأرض بتتكلم... واليوم، كلامها ما مَليان رضا... مرَّ علينا يومها لازم.

📱رسالة أم تاي الله... حكمة توقظ المعنى

قبل الظهر بقليل، وصل إشعار إلى هاتف تاي الله.
كانت رسالة قصيرة من والدته **سعاد عبد الرحمن**:

يا وليدي... قلت أرسل ليك دعاء الفرج:
اللهم اصرف عنهم البلاء، وافتح لهم الأبواب من حيث لا يتوقعون....وما تنسى: في الدنيا، كل ساقية تعرف صاحبها... والشجر ما يخون الأرض لو رُويّ بالنية.

قرأها تاي الله بصمت عاشق، وأعطى الهاتف إلى السِّرة بهدوء.
ثم قال:

دي ما بتقول كلام ساكت... دي رسالة "وسع قلبك وقوم اشتغل."

ضحكت السِّرة، ودونت العبارة بخط غليظ على صدر دفترها: **كل ساقية تعرف صاحبها...**»

📝 كتابة أول مقطع روائي داخل المشروع

بعد الظهر، وبينما كان الفريق يستعد لمراجعة الفلتر وموازنة الضغط في الري، جلست **السِّرة** على حجر صغير قرب الحقل، وفتحت دفترها وكتبت:

الفصل الأول من كتاب الساقية:

- هنا نمشي من طين القرية إلى رمل المدينة
- نلتقي بالملوحة كما نلتقي بالندم في الوجدان
- نعالج، نغفر، نصلح
- ونلتزم ألا نحمل عن الأرض ما لم يُكتب لنا
- لأن القصص لا تنتهي بالبداية... بل تنمو كالجذور، حين يظلّ المكان وفيًّا لصاحبه.

رفعت رأسها وهي تتمتم:

الرواية ما بقت بس قصة بين قريتين... الرواية بقت مشهد حي... بيحصل داخل مشروع، وفي قلب الساقية الجديدة.

مرّ تاي الله قربها وهو يربط غطاء الفلتر المحكم، وقال بصوت خفيف:

اكتبي حلمك في الأول... وركّبي المكنة بعدو... الكتابة تسقي الروح... والمويّة تسقي الزرع.

الإصلاح... وتوسيع الفريق

كانت المفاجأة، حين دخل عليهم شاب إماراتي يعمل مهندسًا للصيانة المتعاقدة، اسمه **فيصل الكعبي**، أرسله **ود النمير** لتقديم الدعم. قال فيصل:

سمعت أنكم تواجهون مشكلة ملوحة ومصادر ضغط غير متوازن... خلونا نعيد تصميم محبس ضبط المياه، ونقسّم التيار بمنفذ طارئ.

وقف الزين مشدوهًا:

والله يا فيصل، دا الحلّ النظري اللي حسّيت بيهو في الخدمة... لكن محتاج زول يعرف المسامير .

رد فيصل مبتسمًا:

سمّيني مسمار الساقية اليوم.

تحلّق الفريق حول المحبس الجديد عند الغروب، وتم تثبيت النظام التجريبي الجديد بنجاح نسبيّ، دون انتظار عودة الطقس للأسبوع القادم.

قال تاي الله وهو ينفض يديه من التراب:

العمل الجماعي... بيجمع علم البلدين... والله المسيد دا بقى له فروع في الشارقة.

تم حل مشكلة أولية من مشاكل الأرض، وتقرر أن تُكتب الرواية من داخلها، كأنّ الأرض نفسها تُلقّن اللغة الحدود بين الفِعل والحكاية .

📖الفصل الثامن والعشرون

موافقة الداعم... وعودة الماضي في هيئة سؤال

مطلع الفصل: ما بين مكتب فيه ملفات وأقلام، وميدان فيه مضخّة وساقية، وقلوب تكتب وتعمل في وقت واحد، وُلدت فكرة جديدة: أن تُنشر الحكاية كما تُزرع البذرة، وأن يجد الصوت كتابًا يمهّد الطريق بعده.

في صباح اليوم التالي، دخل **ود النمير** إلى المكتب بملامح رجل اكتملت لديه رؤية جديدة.
كان يحمل في يده ملفًا مختومًا، يسمى :**مقترح دعم للنشر والتوثيق الأدبي**.

جلس إلى الطاولة، ونظر إلى تاي الله والسِّرة والزين، وقال مباشرة:

يا ناس... ما عاد مشروعنا زراعيًا فقط... زاد عليه جناح الإعلام والتوثيق...والساحة الآن تطلب رؤية مطبوعة، كتاب يمشي باسم المشروع... مكتوب بأيديكم، ويفتح الباب للثقافة بقدر ما للزراعة.

فتح الملف، وأعلن:

قررتُ أن ندعم نشر كتابكم الأول،باسم :**الساقية... تمشي وتغني**
نصوص، توثيق، صور، رسائل مختارة من أم حجل إلى الغربة...وباسمكم الأربعة.. تاي الله، السِرّة، الزين، وخِتام في التحكيم الأدبي للّغة.

ساد الصمت الممتلئ بالفرح.
ثم قالت السِرّة ببطء، كأنها تسمع صدى الأرض في الجملة:

يعني الرواية تصبح كتابًا مشتركًا؟.

أومأ **ود النمير**:

نعم... ستنشر هذه التجربة كما لو أنها في فصل حي من فصول التاريخ...من المشروع... إلى المطبعة... ومن الريف... إلى الرفوف.

✍ السيرة تتحوّل كتابًا

لم تنتظر السِرّة طويلًا، فتحت جهاز الحاسوب، وبدأت كتابة «مقدمة الكتاب» بصوت الراوي الجمعي:

كتب هذا بحبٍّ للتراب، وللعزلة التي تحرس الزرع في الغربة، وللأم التي تسقي بالرسائل قبل الماء، وللصوت الذي لا يتشاجر مع الأبد...
لأن الساقية، حين تمشي، لا تسأل الأرض لمن تدور... بل تسقي، وتسكت، وتحرّر قلب العامل من الغربة شيئًا فشيئًا.

كانت تلك بداية فصل جديد، ليس في الرواية فقط، بل في مشروع الوعي الريفي المعاصر.

📞اتصال غير متوقع... من ماضٍ ظلّ واقفًا أمام بوابة السرد

في المساء، وبينما كانت السِّرة تراجع نص الفصل الأول، رن هاتفها من رقمٍ دوليّ يبدأ بـ **+249.**

ردّت، فجاءها صوت أنثوي دافئ ومألوف:

السِرَّة؟... أنا **هبة الطيب** ...زميلتك في جامعة الخرطوم، قسم اللغة العربية.

توقفت سِرّة قليلًا، وفكّرت:
هبة؟ تلك التي كانت تشاركها قصائد حميد ومحي الدين الفاتح؟ وتكتب معها في جريدة الحرم الجامعي؟

قالت هبة:

كنت بتابع أعمالكم على اليوتيوب... وأعرف صوتك يا السِرّة من بين ألف صوت...أتابع بلهفة مبادرة «الساقية»... وقلبي في أمسّ الحاجة لإجابتك عن سؤال واحد...هل الكتابة... فعل جبر للغربة؟...
أم أنها الغربة نفسها، تمشي في شكل حُروف؟.

ساد صمت اللحظة؛ رأت السِّرة أنّ الماضي لم يترك الباب أبدًا.قالت بصوت عميق:

الكتابة يا هبة... المكان الذي لا يطرده الغياب... ولكن لا يكفي حكمًا أن ننشر الألم... دون أن نزرع رجاءه في الأرض.

هنا تنهدت هبة:

هل تكتبين الآن... أم تُمتحنين؟.

ردّت السِّرة بابتسامة مكسوة بالنور:

حين تكون الساقية هي الامتحان... تصير الكتابة مراجعة داخلية للصدق.

الفصل الثاني من «كتاب الساقية«

أغلقت السِّرة الهاتف، وعادت إلى كتابتها، وبدأت في صياغة الفصل الثاني:

الفصل الثاني – عن أم حجل...هذه القرية لم تكن مجرد مساحة ترابية في الجزيرة... بل حافظةٌ للمروءة، وجذعٌ للظل والأمان...فيها رجالٌ يخطّون على وجوههم خريطة الحياة...ونساءٌ يشكّلن أعمدة الصوت والحكمة... منها خرج تاي الله... وإليها تعود السِّرة بالوعي... لا لبيت الطين فقط، بل لبيت الروح الخفي، الذي شهد ولادة القصة.

تأكد انتقال الحكاية من كونها رواية مكتوبة إلى واقع يُحرّره الكتاب والنشر،

وتكاملت الفكرة بين «المشروع» و«الكتاب«،

وظهر الماضي من جديد... لا ليعطّل، بل ليشدّ

ويؤنس .

📖 الفصل التاسع والعشرون

ولادة المخطوطة... وحدثٌ يعيد الساقية إلى أصلها

مطلع الفصل: الحكاية إذا بدأت من قلبٍ صادق، فإنّها لا تنتهي. وإن حاول الناس إغلاق بابها، فتحت نافذة. وإن مضى الراوي إلى الغربة، رجعت الرواية إلى مسقطها، حتى ولو كانت تحمل على صدرها ثوبًا من نور الغربة.

في غرفة المكتب الهادئة، جلس فريق «ساقية تمشي وتغني» أمام شاشة كبيرة، يعرضون عليها المخطط الأولي للمخطوطة التي ستتحول إلى كتاب. كان العنوان يتصدر الصفحة الأولى بخط عربي بسيط، أنيق، محاط بزخارف سودانية وإماراتية متداخلة:

كتاب: الساقية تمشي وتغنّي– من أم حجل إلى الشارقة
حكاية زراعة، وذاكرة، وتوثيق بين تراب الوطن وصوت الغربة

بدأت **السِّرة** ترتّب فصول الكتاب:

1. تباشير الساقية الأولى – أم حجل، البدء والصوت
2. عن الماء الذي ينطق بالحكايات
3. الغربة حين تفتح بابًا من نور
4. زراعة وجذور... في أرضٍ بلا سواقي
5. ترميم الذاكرة – صور ووجوه من أم حجل

6. رسائل الأمهات... من هناك إلى هنا
7. تدوين التجارب – بين الزرع والكاميرا
8. حين تمشي الساقية في الكلام
9. كوّة الأدب على نافذة الأرض
10. **خاتمة: العودة بالوعي، لا بالجسد**

بينما كانت السِرّة تراجع النصوص، قال **تاي الله**:

والله الكلام دا ما كتاب بس... دا جسر... ولادنا في أم حجل بعد عشرين سنة ممكن يلقوا هنا معنى الغربة ما كانت قطيعة، بل كانت بذرة.

أضاف الزين، وهو يرجع كرسيه إلى الوراء:

وإحنا بعد زمن نقول: نحن كنا تحت شجرة المنقة في أول يوم، والكتاب دا كان ورقة... شوفو وين بده يوصل.

ضحكت **ختام عبد الحليم** وقالت بثقة يجتمع فيها الأدب بالفقه:

هذا ليس كتابًا عاديًا... هو وثيقة
وإن نُشر – فقد ثبت أن اللغة لا يسكنها ترابٌ واحد، بل يمشي فيها وطن بأكمله.

🕌زيارة دار نشر محلية

وصل إلى المكتب في ذلك الصباح، الأستاذ «بدر الدين المري»، مدير دار نشر إماراتية باسم" :**المنارة الثقافية"**، بعد اطلاعه على موجز الكتاب عبر وساطة **ود النمير**.

دخل المكتب بعباءته الرمادية الرسمية، وحيّا الجميع بوقار، ثم قال:

قرأت الفصلَين الأوّلين من مقترح كتابكم...فيهما امتزاجٌ فريد بين ملامح الريف السوداني... وروح الإمارات في احتضان الفكرة...وإن شاء الله سأعرض على اللجنة أن يكون الكتاب من إصداراتنا في معرض الشارقة الدولي للكتاب القادم.

تجمّدت ابتسامة السِّرة للحظة، ثم فاضت منها كأنها انتظارٌ طال:

يعني الكتاب... ممكن يكون جاهز قبل نهاية العام؟.

أجاب المري:

إذا أكملتم المخطوطة خلال ستين يوماً... نعم. ونطبع منه ألف نسخة كبداية، ونُترجم جزءه الأوّل إلى الإنجليزية.

نظر تاي الله إلى السقف، كأنّه يعدّ النجمات فوق طريق قرية أم حجل، وقال:

دا يوم يكتب في تاريخ الحِلّة.

⚠️ اتصال من أم حجل... وهزة في مسار السرد

وقبل أن يغادر مدير النشر، رنّ هاتف الزين بلهفة واضحة.
كان المتصل :**الناظر فضل السيد** من أم حجل.

قال الزين بالدمعة، وهو يتلقى الخبر:

يا جماعة... حصل شيء في البلد...الخور الفي طرف الحِلّة طمى من المطر، والبيت القديم في طرف الجدول اتهدّ من غير سيرة...لكن في حاجة غريبة... البِير اتفتحت براها بعد السيل... وطلع تحتها حجر كبير...محفور عليه كلام ما معروف مصدره.

تجمّدت وجوه الجميع، ثم تقدمت السِّرة وسألت:

كلام محفور؟ كلام شنو؟.

ردّ الزين بصوت مختنق:

كأنو مكتوب... (هنا قامت الساقية الأولى)... بخط شبه نقشة... الناس واقفين جوّاتو حيرانين.

توقف الزمن فجأة.

تمتم تاي الله، وهو يمسك رأسه:

يا الله... الساقية بتكتب... حتى بعد زمنها.
تحددت ملامح الكتاب، واتفق الفريق مع دار نشر محتملة، وبانت الطريق إلى نشر التجربة وتحويل «الحكاية» إلى تراث مكتوب.
لكن حدثاً في أم حجل هزّ الجميع، وفتح مساراً جديداً للرواية:

هل تكون الساقية "حكاية ماضية" فقط؟ أم تخرج من تاريخها لتنطق بالكلام؟

📖 الفصل الثلاثون

عودة مؤقتة... وحجر الساقية الذي كتب نفسه

مطلع الفصل: ليس الغريب من يبتعد عن بلاده، إنما الغريب من لا يعرف كيف يعود إليها حين تُناديه... ولا كيف يعتذر عن غيابٍ لم يكن بيده.

كانت الأخبار القادمة من أم حجل، حول ظهور الحجر المنقوش تحت بئر قديمة بعد السيل، كفيلة بإرباك الفريق بأكمله.
لم يكن الأمر مجرد انهيار في التراب أو تغير في شكل الجغرافيا؛ بل بدا كأنه صوت من الماضي يهتف من الباطن:

"اقرأوني من جديد... الساقية لم تنتهِ بعد"

جمع **تاي الله** الفريق، وكان يمشي بخطوات قَلِقة داخل المكتب، ويقول:

والله لا أقدر أكتب، ولا أقدر أزرع... إلا لو مشيت إلى أم حجل وشفت الحجر دا بعيني.

تجاوبه السِّرة بصوتٍ مسكون بالوجدان:

الكتابة محتاجة لوجدان الرجعة... والزراعة محتاجة عين تشوف أصلها...
يمكن دا وقت نرجع... لا نغادر الإمارات، لكن نرجع زيارة سريعة

.

وقف **ود النمير** في الباب، مردفًا:

نا معاكم في رجعتكم... وبينكم وبين البلد ما بينها إلا تذكرة...
تجربتكم الآن ما بس في الإمارات... تجربتكم في مسار الذاكرة الحية...
وذاك الحجر المكتوب... بيكون جزء من كتابكم لو استطعتُم توثيقه.

✈️ترتيب العودة... زيارة غريبة في التوقيت

في غضون 72 ساعة، حُجِزت التذاكر، ورتّبت السِّرة الأوراق، وتم الاتفاق على سفر فريق مصغّر:

- تاي الله
- السِّرة
- الزين

تُرك سالم في الشارقة للإشراف على المشروع الزراعي ريثما يعود الفريق.

في المطار، وقفت السِّرة تحمل دفتر «بوح السفر»، وقد كتبت على الصفحة الأولى بعد مغادرة الشارقة:

حين نعود... لا نعود فارغين، إنما نحمل أصواتًا لم نستأذنها حين غادرنا، ثم نعيدها في صوتٍ واحد.

قال الزين وهو يحجز حقائبهم:

يا جماعة... ما صدفت أن نشيل مبادرة كاملة ونرجع نسمع صوت الأرض... زي ما كنا بنسمع صوت الأم في الليل.

ضحك تاي الله بصوت خافت:

الأرض أم تانية... بتربّت على راسك لو عرفتها... وبتتهمك بالهجر لو نسيتها.

الوصول إلى أم حجل... بين دهشة القرية وصمت الساقية

عند مدخل القرية، وقف الفريق أمام بقايا «البئر القديمة» في طرف الخور. كان الأهالي مجتمعين حولها، ينظرون إلى الحجر الذي ظهر بعد السيل، مزاحًا عن مكانه كأن السيول جاءت تمسح الغبار من فوق ذاكرته.

اقترب **تاي الله**، وانحنى، ولمس الحجر بيده.
كان محفورًا عليه بخط غير عصري، وفيه تشابكٌ بدائيٌ جميل:

"هنا دارت الساقية الأولى،وسالت المويه، ونطق الغيم،فليشهد على هذا كلُّ من مرَّ"...

اختنق صوت تاي الله وهو يقول:

دي ما كتابة عادية... دي كتابة نفس أم حجل.

أجاب الزين:

ونحن كنا قاعدين نحسب الساقية انقطعت... وهي كانت بتكتب على نفسها... عشان نرجع ونشوف.

وقفت السِّرة، ووضعت يدها اليمنى على الحجر، وكتبت في دفترها:

الرواية لم تُكتب من الورق إلى الواقع، بل من الواقع إلى الغربة، ثم إلى الكتاب... هذا الحجر هو فصله الأول.

📚حدث موازٍ... ظهور ناشر سوداني

في مساء ذلك اليوم، وبينما كان الفريق في بيت الناظر، حضر رجل بسيط الملبس، يحمل حقيبة يد صغيرة ويبدو عليه شيء من السكينة.
قدّم نفسه بلا تعقيد:

أنا عبد الهادي من مؤسسة "الرواحل للنشر" في الخرطوم...سمعت بالحكاية، وبمخطوطة الكتاب، وبالبث المشترك...وأعرض عليكم تاريخًا جديدًا:
تطبعون الكتاب في الإمارات، ونطبع النسخة الشعبية في السودان، وتُوزع كنسخة مجانية لأبناء أم حجل والجزيرة عمومًا.

سادت الدهشة على الوجوه.
قالت السِّرة:

يعني الكتاب يكون بين وطنين؟.

فأجاب عبد الهادي:

بل بين رقبتين...رقبة للكلمة....ورقبة للتراب

هزّ تاي الله كتفيه بفرح:

والله دا ما حِلّة عادية... دا لو كان حجرًا، كان برضو بقى شاهد حياة.

عاد الفريق إلى الساقية الأولى، فعثر على ما يربط التاريخ بالوعي، وظهرت فكرة نشر مزدوج للكتاب كصوت لا ينتمي لكوكب واحد.
بدأت الرواية هنا تنفتح على أرضها الأولى، وكأن الكاتب الحق هو المكان، لا القلم .

📖الفصل الحادي والثلاثون

الغربة الثانية... حين يتكلم الوطن بصوتٍ مُزدوج

مطلع الفصل: الغربة الأولى كانت جغرافية، قُطِع فيها الوصل بين المكان والقلب. أما الغربة الثانية فهي وجدانية، تحدث حين يُطلب من الروح أن تكون في مكانين معًا — فلا تقدر أن تغادر لغربتها الأولى، ولا أن تقيم لتمام عودتها.

في صباح اليوم التالي لوصول الفريق إلى أم حجل، استيقظت السِّرة باكراً وقد شعرت بأن في قلب القرية صمتًا غريبًا، كأن الأرض تحمل ما لم يُقل بعد.

ترجّلت نحو باحة البيت القديم، فوجدت الصغار يلعبون حول الساقية الجديدة التي أقيمت مؤخرًا كتذكار لتاريخ البلدة.

فجأة، جاء **ود البخيت** مندفعًا نحو تاي الله وهو يقول بصوت مُرهق:

يا تاي الله... الحلة المجاورة حصل فيها تلَف.
السيل أكل خط الزراعة الرئيسي، والمحصول راح نصّو، وفي خسران كبير...
وبقو ينادونا في الليل نشوف طريقة نجمد فيها المصيبة.

وقف تاي الله على رجليه، كما لو هبّ من سواد القلق إلى ردّة الفعل النبيلة.

كدي خلونا نروح ونشوف الحل... ما في ساقية بتقف لو شقيقة ليها عطشت.

🚜 عند أرض الحي المجاور

زحف الفريق إلى الأرض المتضررة في طرف قرية "القرية" القريبة.
كانت الأرض مشقّقة، وخطوط الملوحة تظهر بوضوح على أطراف الخنادق.

قال الزين وهو يتفحص التربة:

دي نقيصة في المصرف... والسيل فتح خط سفلي... لازم يُسد فورًا وإلا حتنهار الأرض الباقية بعد يومين تلاتة.

اقترب أحد الرجال الكبار سنًا، اسمه «أحمد فضل الله»، وقال بحزن:

نحنا زرعنا قلوبنا قبل الموية... لكن الموية ماشَت... وخانت قدرها.

هنا تدخلت السِّرة، وكتبت في دفترها عبارتها التي أحبت أن تقولها للكاميرا:

حين تعِد الأرض بسعة الخير... تُختبر بضيقه أوّلاً.

رفع تاي الله يده للسماء، وقال:

والله... بنقوم الليلة ذاتها... نسند الأرض، ونوسع الساقية بينا وبينهم... الليلة لو وقفت معاكم يا أهل القرية... بكون سدينا ملوحة الموية... وملوحة الزمن.

📱رسالة مُقلقة من دبي

وما هي إلا لحظات من تنظيم خطة الدعم وبدء عمليات الإصلاح، حتى جاء تنبيه مباشر على هواتف الفريق الثلاثة، من **سالم** الذي ظل في الشارقة يتابع العمل هناك.

يا جماعة... عندنا مشكلة كبيرة...قسم الزراعة في البلدية أرسل ملاحظة عاجلة: هناك علامات تسرّب داخلي في صهريج المياه...وقد يأثر دا على المحصول التجريبي... خصوصًا إنو الأسبوع الجاي فيه عاصفة متوقعة«..

جاء الصمت هذه المرة مثل ليلٍ انطفأت نجومه.

نظر تاي الله إلى الزين، ثم إلى السِرّة، وقال بهدوءٍ لا يملك إلا الصدق:

الغربة بتعاود، ولو كنا في البلد.

نحن الان بين ترابنا وبين تراب الغربة... وكلهم ينادونا...الأرض ما بتسكت، سواء هنا أو هناك.

هنا أغلقت السِّرة دفترها بيدٍ واحدة، وقالت:

دي الغربة الثانية.....ما بين وطنين عايزينك في نفس اللحظة...

هون يا الله... فقد صار القلب سقيفةً لأكثر من بيت.

🕯️تساؤل ختام الليلة

في المساء، جلست السِّرة بجانب الساقية الحجرية في أم حجل، وأخذت تكتب:

»ما التفسير الصحيح للغربة؟
أهِي تلك التي تحدث حين تعيش بعيدًا؟
أم هي التي تُلزمك بالعمل... في مكان لا تسعه إلا النية؟
أم الغربة حين يُطلب منك أن تكون اثنين:
زارعًا في الإمارات... وراعيًا لجذورك في الجزيرة؟
يا رب... هل هناك من عاش بغربتين... وخرج سالمًا؟«

أجابتها الريح من فوق الحقل بصفير خفيف، وقلبها ينتظر إجابة ليست من البشر ...

ازدادت ثنائية المكان حضورًا، وانفتح الباب أمام الصراع العميق بين الغربة الحقيقية، وغربة الوجدان.

وأدرك الفريق أنّ الرواية تسير كالساقية — تمشي لا في اتجاه واحد، بل في دائرتين تتصلان من بعيد .

📖 الفصل الثاني والثلاثون

سِرٌّ أم سترين... وصوت العودة الذي لم يذبل

مطلع الفصل: ليست الحكاية ما نقوله للناس، بل ما تكتمه الأرض وتكشفه لنا حين نعود... فالأسرار لا تُقال حين نغادر، بل حين يتأكد المكان أننا ربما بقينا في قلبه أكثر مما كنا نظن.

بعد يوم طويل في إنقاذ أرض الجيران في قرية "الولاية"، وبعد سماع خبر التسريب في مزرعة الشارقة، عاد الفريق إلى بيت أم سترين – المنزل القديم الذي لم يُغلق فيه باب الديوان منذ أن رحلت الحاجة *ست النور*، أم السِّرة الكبرى، والتي كانت تُعرف في القرية بـ «أم سترين.«

جلست معهم في البهو امرأة كبيرة في السن، تجلس بعزيمة وحياء، اسمها **الحاجة خديجة بت التوم** – كانت من النساء اللاتي شهدن ولادة أجيال، وجارتْ أم سترين نفسها لأكثر من أربعين عاما.

نظرت السِّرة إلى وجهها، وقالت برفق:

يا خديجة عمّتنا... قبل يومين، جلست تحت ظل الساقية، وشعرت بصوت الروح يناجيني باسم أمي... كأنها تقول لي شيئًا لم تقله وهي حيّة...هل عندك عنها سرٌ ما زال معلقاً؟.

صمتت الحاجة قليلاً، ثم رفعت رأسها بملامح يلمع فيها الحنان:

أمك يا بُتي... ما كانت ست الشاي والقهوة بس... كانت بتعرف تقرأ الرسائل المخبوءة...ما بين سطر الكلام... وما بين طلقات الهوى في السماء...أتدرين أن اسمها الحقيقي... ما كان أم سترين؟

فزعت السِرّة قليلاً... وفتحت دفترها تنتظر الكلمة.

قالت الحاجة خديجة بابتسامة:

كان اسمها :**ستيرة بنت النور...**
سموها أم سترين لأنو كانت بتستر الفقد... وتلبس قلوب الناس ثوبًا من السلام قبل مناقير الطيور الصاحية...وكانت تقول دايمًا: (الستر ما بيتعلّم... الستر بيعرف صاحبو).

وقتها نزلت الدموع من عيني السِرّة، كأنها تقرأ روايتها من قلب الأرض، لا من قلب الأوراق.

كتبت فورًا:

الستر ليس قطعة قماش... بل قلبٌ يتنفس دون أن يجرح الهواء...
وأشدّ الستر... أن يكون الصوت صامتًا والفعل ناطقًا غير متباهٍ.

البئر المقدسة... تخطيط لفصل كتابي جديد

وقف تاي الله عند البئر القديمة التي انكشفت من تحت طمي السيل، وبدأ يتخيل شكل فصلٍ جديد في الكتاب:

يا جماعة... فصل البئر دا لازم يكون فصل مستقل في الكتاب...
نكتب فيه كلام أهل البلد عن الساقية الأولى... ونصور الحجر... ونخلّي الناس تعرف إن الساقية ما كانت بس أداة ري... بل كانت شجرة نسب بين الأرض والوعي.

قالت السِّرة وهي تراجع هيكلة الكتاب:

دي فكرة بديعة...النصوص خرجت من دفاترنا... لتكتب على الحجر...ودي علامة إن الحكاية أعمق من مجرد رواية، دي امتداد ثقافي، ودا فصل لازم نحفظو قبل ما يتبدل التراب من حوله.

✈️قرار الرحيل المُقبل... الغربة الثالثة؟ أم عودة بنكهة مختلفة؟

بعد أيام من المساعدة في إصلاح الأرض وتدوين أسرار أم سترين القديمة، جلس الفريق للتشاور من جديد حول العودة إلى الشارقة:

قال الزين:

المزرعة في الإمارات محتاجة وجودنا الفوري.
سالم بيحاول يصلح التسريب، لكن نحتاج نكون هناك...خصوصًا لو اتفقنا نطبع جزء من الكتاب في الشارقة... ونخلّي الفصول عن أم حجل تُكتب من هنا.

تنهد تاي الله وهو ينظر إلى حجر الساقية:

والله نحنا بقينا في مفصل من مفاصل الزمن...نرجع؟ ولا نخلّي العودة تاخد شكلها، ونبقى نصنع من الحاضر رواية تربط الأرضين؟

كل مرة بنرجع بنعرف ليه مشينا...وكل مرة بنسافر بنحس ليه رجعنا.

فقالت السِّرة بصوت ملهم:

ربما... الغربة الأولى كانت جبرًا، والغربة الثانية كانت نداء عمل...والغربة الثالثة... قد تكون جسرًا بين الاثنين...

وسنكتبها – كفصل أخير، لا كبداية جديدة فقط.

كشف سرُّ «أم سترين» معنى الستر الحقيقي، وبدا أن الرواية لا تنتمي لزمن واحد ولا لمكان واحد، بل تمتحن الشخصيات لتجمع بين الشارقة وأم حجل في كتاب واحد .

📖 الفصل الثالث والثلاثون

عودةٌ مشروطة... وبشرةٌ ممزوجة بالابتلاء

مطلع الفصل: **ليس القرار أن تبقى أو تغادر – بل أن تعرف ما الذي يربط خطواتك، وأن لا تجعل الرحلة تقطعك من جذرها، ولا تعود بلا بذرة تحمل المستقبل.**

في آخر ليلة من الإقامة في أم حجل، اجتمع الفريق في ساحة البيت المضاءة بمصابيح خافتة تعمل بالطاقة الشمسية.
هدأت القرية قليلاً بعد حركة النهار، وبدا كأن الساقية نفسها تنتظر كلمة الفصل: هل سيعود الفريق إلى الشارقة غداً، أم أن للقرية طلبًا آخر قبل الوداع؟

قال **الزين** وهو يقلب هاتفه بقلق:

سالم رسَل لي قبل ساعة... فيه تحذير رسمي من البلدية في الشارقة: لو ما اتظبط التسرب خلال يومين، ممكن يوقفوا نظام الري بالكامل... لأنه يعتبر خطرًا على البيئة. لازم نكون هناك خلال 48 ساعة بالكثير.

وقف **تاي الله** بهدوء مُنضبط وقال:

بسم الله... ما دام الأرض هناك بتنادينا، بنرجع ليها.
والكتاب ماشي معانا... والستر محفوظ هنا... والعودَة الجاية حتكون برجوعٍ مختلف، ما بشرط بالأجساد، يمكن بالروح والكتابة.

انحنت **السِّرة** قليلاً نحو حجر الساقية، وضعت كفّها عليه، وقالت بصوت حنون:

إنا لله... نُودّع على أمل، ونعود على عمل.
وكل سفر ليه حكمة... والمرة الجاية نرجع ومعانا فصل مكتمل عن أم حجل...
وباخد معاي نسيم التراب الحافي... وسَرّ أم سترين.

قبل النوم، جلست السِّرة تراجع المخطوطة على الجهاز المحمول، وأضافت هذا العنوان الذي سيُصبح فصلًا أساسيًا:
حين تتكلم الأرض بما أخفته الفصول، وتكشف الحجارة ما لا يُمكن أن تقوله الجغرافيا بصوتٍ آخر.

فيه تكتب:

ما معنى أن يظهر حجرٌ مكتوبٌ بعد أربعين سنة؟
أيُّ سرّ حمله السيل؟ أيُّ رسالة خبّأها التاريخ للأجيال القادمة؟
هل نكتب عن الساقية، أم الساقية تكتب عنّا؟

💼 **اتصال من دار النشر: خطوة إلى المطبعة**

وما إن انتهت السِّرة من تنسيق الفصول، حتى رن بريدها الوارد برسالة من الأستاذ **بدر الدين المري**)مدير دار المنارة الثقافية في الشارقة:

مرحبًا فريق الساقية، نخطط لعقد اجتماع المعاينة النهائي للمخطوطة خلال الأسبوع القادم.
يرجى تجهيز نسخة PDF ونسخة Word مع السيرة الذاتية للمؤلفين الثلاثة، ونماذج من صور المشروع الزراعي، وصور البئر التراثية«...

تنهدت السِّرة بشعور مليء بالمسؤولية:

كتابة بكل أمثلة الصدق... نضجت الآن في عيون القرّاء قبل المطبعة.
فليكن الكتاب على قدر الساقية التي ما زالت تمشي

تأكيد موعد السفر... وليلة اختبار

في الصباح التالي، وقبل تحرك الفريق إلى المطار، جاءت رسالة على جوّال تاي الله من رقم إماراتي معروف:

من بلقيس: الي "تاي الله... نحتاجك في المكتب قبل أي إجراء زراعي. لديك موعد مهم من جهةٍ داعمة ظهيرة الغد. الموضوع يمس مستقبل المشروع بالكامل".

توقف قلب تاي الله للحظة.
نظر إلى السِّرة والزين وقال:

يبدو أن الخطوة الجاية ما بس لترميم الأرض، لكن لبناء امتداد في الدعم... ما عارف شنو الموضوع... لكن دا شكلو ابتلاء وفرصة في نفس اللحظة.

ابتسمت السِّرة بخفوت، وقالت:

الغربة الثالثة إذًا... هي غربة امتحان العمل... قبل الامتحان الروحي. نمشي يا تاي... ونوازن الكتاب بالبذور... والقلب ما بيضيع بين وطنين لو كان شايل نيّة واحدة.

لقد اتخذ الفريق قرار العودة إلى الشارقة — عودةٌ محمّلة بالأسرار التي كُشفت في أم حجل، وبالخوف والحلم الصادقين داخل مشروع "الساقية" الإماراتي.
كما اكتمل الفصل التراثي للكتاب، وبدأت رحلة حقيقية نحو النشر والامتداد .

📖 الفصل الرابع والثلاثون

الاجتماع الأول... وسؤال بلقيس الذي لا يريد جوابًا عابرًا

مطلع الفصل: إنّ من يزرع لا يزرع للغد فقط، بل يزرع ليحفظ مكانه من نسيان الأرض، ويمنح الكون فرصة لتذكره بماسةٍ في ترابها.

بعد عودة الفريق إلى الشارقة، كان اليوم التالي حافلاً باللقاءات.

دخل **تاي الله** المكتب، فوجد أن بلقيس (مديرة المكتب المعاون وشريكة في الورق المعدّ للمشروع) تنتظره بوجهٍ متّقن الجدية، ولكن خلف نظرتها لمعانٌ قديم، يفتّح بابًا بين الاحتراف والحنين.

قالت بلقيس دون مقدمات:

نحتاجك للقاء عاجل مع ممثل صندوق دعم المشاريع الاجتماعية، عند الثالثة ظهرًا...

من دونك، لن نفهم كيف نمزج بين الريف والأدب في ملف واحد...

لو كسبنا الدعم – المشروع الزراعي لن يكون مشروع إدارة، بل مشروع وطن.

نظر تاي الله إلى الورق أمامها، ثم قال بتركيز:

الزرع ما بيعيش بالكلام بس... لازم الأرض تحس إنو الناس بتخاف عليها...وأنا خايف من قيمة التمويل لحديث الثقافة – ما دايرها تكون سلعة، دايرها تكون إرث.

ابتسمت بلقيس بثقة هادئة:

هذا بالضبط ما جاء الركن المموّل ليستمع إليه.

طرح حسّاس في الاجتماع

تمام الساعة الثالثة، استقبل المكتب مندوب الصندوق –كان رجلًا في منتصف العمر، وأكثر ما لفت الفريق إليه هو عمقه الهادئ أكثر من صمته.

بدأ الاجتماع بعرض فيديو قصير عن تطور المشروع ومحتوى الكتاب، ثم قال المندوب:

مشروعكم لا يندرج في خانة الزراعة فقط، بل في خانة الإنتاج الثقافي الحي.
لكن لدي سؤال حريص: ما الذي يُثبت أن هذا العمل ليس مجرد "قصة" صالحة لنشر عبر السوشال ميديا، بل مشروع تنموي حيّ؟.

هنا وقف تاي الله، وأجاب بينما كانت أنفاسه تسابق الكلمات:

ليس عندي قصة لأحكيها..عندي أرض تحكي بنفسها...وحبر كتبناه من عرقنا قبل أقلامنا.

والكتاب دا ما بيعكس مشروعنا – بل يُثبت إنو القصص العاشقة للأرض، تُغير الناس إن دايرين أو ما دايرين.

هز المندوب رأسه باحترام، ثم قال:

سنعتمد دعمكم القيمي هذا الأسبوع... لكن بشرط: أن يُكتب اسم المشروع باللغتين، وأن يشمل الكتاب فصلًا مخصصًا للجانب الزراعي التقني وأثره... لا مجرد يوميات سرد.

تبادل الجميع النظرات في لحظة صامتة... ثم أومأت السِرّة وقالت بتصميم:

سنكتب هذا الفصل... وسنضعه في منتصف الكتاب... ليتذكر الناس أن الأرض كانت شاهدة وحارسة، لا مجرد موضوع.

مفاجأة من السِرّة... فصل "الغرس والبذرة"

في تلك الليلة، جلست السِرّة قرب سريرها، تؤدي دورًا لا يقل أهمية عن دورها في المزرعة أو في الكتابة الروائية.

بدأت صياغة أول سطور فصل بعنوان:

الفصل الأوسط – الغرس حين يكون فكرة، والبذرة حين تصبح كلمة عن تأسيس مشروع زراعي في بيئة خليجية تحمل روح الريف ووقع

المسيد، وعن ميزان الحلم والفرصة والتقنية، وكيف يكتب الإنسان أثره في الحقل قبل أن يُكتب على الورق.

كتبت:

لم يكن في بال أحد أنّ تربة الشارقة ستحتضن ذاكرة الجزيرة السودانية...
ولا أنّ الساقية ستدور على رمل، كانت من قبل صماء للصوت...
لكنّ الطبيعة تتكيّف كالأمّ التي تمسك طفلين من يدين مختلفتين –لا تُفاضل، لا تهجر، بل تقيم العدالة بين الأرض والمكان.

الشدّ الخفي بين تاي الله وبلقيس

في الأيام التالية اتضحت الأمور العملية –وبدأ الفريق في الاستعداد لطبعة الكتاب التجريبية.

لكن شيئًا في العلاقة بين **تاي الله** و**بلقيس** كان يتشكّل بصمت.
ظل الحوار بينهما يحمل أكثر من مجرّد تعاون، ويقترب من مفترقٍ بين الشعور والواجب.

في مساء أحد الأيام، قالت بلقيس بصوت خافت تحت ضوء المكتب:

الغربة يا تاي الله... ما بتكون بس جغرافية.
مرات بنكون في بلدنا... وفي ناس حوالينا... لكن غربتنا تكون من جوة...
قل لي الحقيقة: هل بيوم من الأيام حسيت إن الغربة ما كانت في السودان... بل كانت فيك إنت؟

لم يجب تاي الله مباشرة.

رفع رأسه... وهرب بصره إلى نافذة الليل، وقال:

الزول الغريب... هو البسألك سؤال زي دا... وما بكون قادر يجاوب.

سكتت بلقيس، وتركت الكلمة تمشي وحدها، كأنها وعدٌ مؤجل أو اعتذار باسم الغربة.

وقد قرُب موعد دعم المشروع رسميًا، ودخلت الرواية في خط درامي جديد لا يفصل بين القلب والعمل، ولا بين الريف والغربة، بل يختبر مفترق طرقٍ فيه المسؤولية والشعور يتقاطعان .

📖 الفصل الخامس والثلاثون

بين الحبر والسماء... ما لم يُكتب بعد

مطلع الفصل: حين تصل الحكاية إلى الباب الأخير من الفصول الأولى، تبدأ القلوب في الجلوس على عتبات الصمت، وتتساءل: هل انتهى كل شيء؟ أم أن البداية الكبرى لم تبدأ بعد؟.

في صباح يومٍ بدا عاديًا من أيام الشارقة، وصلت رسالة نهائية من دار "المنارة الثقافية" إلى بريد المشروع:

نرحب بكم رسميًا في برنامج الطباعة، ونطلب تسليم النسخة النهائية من المخطوطة خلال 14 يومًا، مع السيرة التفصيلية للمؤلفين، وملخص المشروع الزراعي وأثره، إضافة إلى صور توثيقية للفصول المتعلقة بأم حجل...

كانت الرسالة في وقتها، لكن كان في التفاصيل إحساس خفي:
أنّ الكتاب لم يكتمل بعد.
أن هناك فصلًا لا يأذن بالكتابة من ذاته، ويحتاج أن يُسمع لا أن يُسطر.

جمعت **السِّرة** الفريق في مساءٍ هادئ خارج المكتب. جلس الثلاثة على سطح العمارة، وكانت المدينة ساجدة بضوئها الخافت.

قالت السِّرة بوَجَل صادق:

نحن كتبنا كل ما رأيناه... لكن في سطر ما زال مختبئًا.
ما زال في سؤال: ما الذي لم نكتبه بعد، في هذا التحوّل؟
ولماذا أشعر أن أم سترين نفسها ما زالت تُمهِلنا فلا نختم؟

رفع **تاي الله** رأسه نحو السماء، وقال:

المويه ما بتجري مرة واحدة في الساقية.
مرات تحتاج تتخزن عشان تقدر تسقي جذر بعيد...والرواية دي...
شجرة. فيها فروع وصلت الآن، وفيها فروع لسة تربو بهدوء تحت التراب.«

أضاف الزين:

والله دا كلام حكيم. الكتاب دا ما يُختم بالفعل... يُختم بالمعنى.
يمكن نكتب الخاتمة، ونخلي بابًا مفتوحًا لفكرة "الطبعة الثانية" بعد عامين... لو صار شيء يستحق التوثيق.

✍️ السِّرة تكتب الخاتمة الأولى المؤقتة

جلست السِّرة، وكتبت في الدفتر فصل الخاتمة، وقالت فيه:

الخاتمة الأولى – الساقية لم تتوقف... بل اختارت أن تستريح

يظن الناس أنّ الساقية تعمل وتدور دون إرادة...لكننا عرفنا من أم حجل أنها تعمل بالقلب قبل الدوران، وأنّ القلوب التي تلتف حول الماء تعرف أكثر من العيون التي تكتفي بالمشاهدة...
الرواية لم تنتهِ... لكنها أغلقت أبوابها الأولى لتُهيّئ أبوابًا جديدة، تحتاج إلى

صبر، وتحتاج قبلها إلى ستر.
فلتبق الأرض شاهدة، وليبق الكتاب دليلًا... على أننا لم نكتب عن الساقية، بل كتبنا معها.**

📌 لحظة التحوُّل: بلقيس وتاي الله في حديثٍ مكشوف

في تلك الليلة، بقي الطرفان الأعمق شعورًا – تاي الله وبلقيس – جالسَين في صمت المداولة.

قالت بلقيس بصوت رقيق لكنها ثابتة:

أتعرف يا تاي...ليس كلّ سرد يختم بالعودة إلى الوطن...بعضه يختم بعودة الإنسان إلى نفسه.
وأنا أظن... أنك تعيش غربتين.
غربة العمل مع الغربة من الروح.

كانت هذه الجملة مثل فأس جاءت من عمق الصدق، ففكّت بابًا لطالما ظل مواربًا.

ردّ تاي الله بصوت قلقله الشوق الداخلي:

ربنا خلقنا بلا قرار ثابت...والغربة لو كانت نهاية، كان الواحد مات من قساوتها...
لكن أنا وصلت لقناعة:
الغربة موش مكان... الغربة زمن، والإنسان بيكون غريب لما يكون في

الزمن الغلط من غير ما يختار....نظرت بلقيس إلى الأرض، وعيناها تقولان ما لم تقله الشفاه:

وأنا؟

هل بيني وبينك زمن غربة... أم زمن لقاء مؤظّل؟

لم يُجب.

لكن المكان أجاب... بصمت يرقب ما سيؤول إليه الأمر.

وقد اهتزّ ميزان الحكاية بين اكتمال النص والفراغ المكتوب، وبين تحوّل العلاقات الشخصية ومصير

المشروع .

الفصل السادس والثلاثون

الساقية الثانية ـــــ ما بين الدعاء والرجوع

مطلع الفصل: لا يُختتم الطريقُ على حجر، ولا يُكتب اللُّب بالفصل الأخير. فقد تكون الخواتيم أوسع من الفصول، وقد يمتدُّ السترُ من سواد الحبر إلى فسحة الدعاء.

بعد أسبوع من المراجعات الأخيرة، استلمت **السِّرة** النسخة الخامسة من المخطوطة المنقّحة.
ظهرت على يمين صفحاتها عناوينٌ ثابتة، وظهرت في الهامش خيوطٌ ترسم شكل ''الساقية'' كما تمشي في دورة بين الذرة والماء والذكريات.

كان بينهم فصلٌ جديد، كتبته السِّرة من تلقاء نفسها تحت بند" :**بين الورق والحياة – ما بعد الخاتمة الأولى**"، وفيه قالت:

من قال إنّ الرواية تُغلق حين تُطبع؟
ومن قال إن الساقية الأولى كُتبت لتبقى في تاريخ فقط؟
إنّ الساقية الثانية، تلك التي لا تدور بالحجر والأرض، بل بالدعاء حين يلتقي بالمستقبل، هي ما سيأتي من الآن... في نفوس الأجيال القادمة. لذا، يأتي هذا الكتاب كتذكار، لا كمُغلق، وكبوابة، لا كأسلوب حياةٍ واحد...

وبين (أم حجل) التي كتبتُ منها، و(الشارقة) التي عشتُ فيها، بدأت أفهم أنّ الحكاية حيّة أكثر منّا... إن كتبناها بصدق.

✉مفاجأة تصل من أم حجل:

"نصوص لم تُكتب بعد، وُجدت على حيطان الخلوة القديمة"

في صباح يوم هادئ، وصل بريد ورقي من أهل أم حجل، أُرسل مع أحد المسافرين إلى الإمارات، وصل إلى يد تاي الله عبر بريد مكتب خدمات معروف.

فتح تاي الله الظرف، فوجد قصاصات قديمة، مكتوبة بخط نسائي رقيق على قصاصات خيش ودفتَر. كانت إحدى العبارات مكتوبة بخط الحاجة **ستيرة بنت النور (أم سترين)** بخط واضح:

الساقية لا تمشي لواحد... تمشي لسبعة
والغرس إن وُضع لله لا يموت، ولا يتيتم مهما تغيّر الزمان

وقف تاي الله، وبيده الكلمات، كأن الأثر الذي لم يظهر في حياة أم سترين... اختار الآن أن يظهر في زمن الرواية.

أعطى الأوراق للسِّرة، فكتبت:

هذه ليست فقط أصوات موتى... بل أصوات أحفادٍ قبلوا الحياة وكتبوا رسائلهم بالتراب.
وقد آن للكتاب أن يستقبلها لتصبح جزءًا من ذاكرة أبعد من الحبر... ذاكرة جيلٍ قادم.

✨دخول "المرحلة الثانية" من الساقية

اجتمع الفريق – تاي الله، السِّرة، الزين، وبلقيس – تحت ظلّ شجرة الرمّان في فناء المكتب، وأعلنوا:

من اليوم... وبعد تسليم النسخة النهائية للناشر، نبدأ مرحلة «الساقية الثانية» وهي:

– دورات كتابة وتوثيق لأهل الريف
– مشروع مصوّر يُبرِز أصوات القرى في قالب بصري
– وبثّ جديد بعنوان: دعاء الساقية —— حلقة بين التراب والمدينة
– وبابٌ مفتوحٌ للقصص المرسلة من الإمارات إلى الجزيرة، ومن الجزيرة إلى العالم.

هنا بدأت السِّرة تبكي في صمت.
سألها الزين بحنان:

مالك؟ دمعك دا ما مفروض يكون فرح؟.

ردّت بخيط صوت صادق:

دا فرح ممزوج بخشوع...عارفين؟ أنا كنت فاكرة إن الرواية بتكتمل لما نخلص الفصول...لكن الحقيقة... الرواية ابتدت الآن

اجتمعت فيه الكتابة مع أثر التراث، وتحوّلت الساقية من مشروعٍ ملموس إلى فكرةٍ تمتدُّ في الذاكرة.

وهكذا تدخل روايتك الآن مرحلة «العيش بعد الكتابة»، وهي محطة نادراً ما تبلغها سوى الروايات الحيّة المرتبطة بالإنسان والأرض.

📖 الفصل السابع والثلاثون

صوت السِّرة... وبثُّ الدعاء الأول

مطلع الفصل: الكلمات التي تُكتَب تأخذ شكلًا واحدًا. لكن حين تُقال، يصبح لها أرواحٌ تعود من الورق إلى الأذن، لتحيا في السماء كما وُلدت من الأرض.

كانت ليلة الخميس صافيةً فوق الشارقة، تلمع فيها النجوم بنقاء كأنها تحمل نور الساقية القديمة من أم حجل نفسها.

جلس الفريق في «غرفة التسجيل»، وهي غرفة بسيطة جرى إعدادها بإحكام عازل للصوت، وبميكروفون ناعم الإيقاع قريب من حافة قصيدة.

جلس أمام الميكروفون **السِّرة**، وفتحت «نص التقديم»، الذي ظهرت فيه كلمات الفصل الأول من الرواية بصوت خفيض:

في قريةٍ تُدعى أم حجل... بدأت القصة من ساقيةٍ أولى...

ولم تكن الساقية خشبةً تدورُ لتروي أرضًا، بل كانت نغمة حياةٍ تُسمع قبل أن تُرى.

تعلمت هناك أن التراب ليس ترابًا، بل ذاكرة... وأن الذاكرة ليست للتسجيل، بل للستر...

كانت السِّرة تقرأ، لكن صوتها كان يحمل شيئًا إضافيًا – شعورًا لا يُكتب. لمست الكلمات نبرة الحنين: حنين المكان، وحكمة أم سترين التي حفظت الستر قبل أن يخلقه الكلام.

توقف التسجيل عند الدقيقة 8:15، وقال **الزين** وهو يشاهد المشهد عبر لوحة التحكم:

والله الصوت دا ما صوت قراءة... دا صوت أمل... زي ما يكون بيعلّق العتمة على باب الصباح.

ابتسمت السِّرة وقالت:

هذا صوت الأمهات... قرأت لأمي، ولكل من لم يقرأ صوته بعد.

🎬فيديو المقدمة ــــ دعاء الساقية

بعد الانتهاء من الصوت، انتقل الفريق إلى تجهيز فيديو المقدمة للبث الأول لمنصة «دعاء الساقية»، وكان منها مقطع دافئ يبدأ بالسِّرة تسير بين أعواد القمح وتقول:

يا رب... كما حفظت الساقية الأولى في الأرض، فاحفظنا في الغربة...
وكما جمعت المياه بين ضفتين، فاجمعنا بين وطنين...
واجعل كل أرض نزرعها مقامًا للمعنى، لا مقامًا للمسافة.«

هذا الدعاء كان أول ما سيُسمع في البث المباشر.

🛰️اتصال غير متوقّع... من مكان لم يخطر على البال

قبل بدء البث بساعتين، جاءهم إشعار خاص عبر البريد الإلكتروني:

📫رسالة من لجنة مجتمع المعرفة – اليونسكو/باريس:

"اطّلعنا على مشروع «الساقية تمشي وتغنّي» كوثيقة تحوي جسرًا بين الثقافة والتنمية،
ونودّ طلب توضيح مكتوب حول دور السرد الشفاهي في تطوير الوعي الزراعي لدى المجتمعات الهجينة...
إن أمكن، نرجو حضور عضو من فريقكم ضمن جلسة كنانة الثقافية بعد شهر، حيث نبني ملفًا حول (السرد الريفي وتمكين المجتمعات عبر الرواية)".

أطلقت السِّرة شهقتها الأولى، وكأن العالم أصبح بحجم أرض أم حجل،
لكنها بحجم الفكرة التي كبرت في القلب.

قال تاي الله بتأثُّر:

يا جماعة... الكلام بتحقق...مشروع صغير في الريف بقى عندو صوت في باريس؟
سبحان الله، دي رحلة الكلمة النظيفة. تمشي حتى لو مشينا عاديين.

🎙️بدء البث الأول — والسؤال الأول من الجمهور

تمام الساعة الثامنة مساءً، انطلق البث المباشر بعبارة مكتوبة فوق صورة الساقية:

دعاء الساقية — من أم حجل إلى العالم

جلس الفريق وراء الميكروفونات، وفي الخلفية دعاء السِّرة الذي عُلّق على الفيديو.

وخلال الدقائق الأولى من البث، جاء سؤال عبر الدردشة:

هل الساقية مجرد رمز؟ أم أن هناك ساقية ثانية ستقوم فعليًا في أم حجل؟

سكت الجميع لحظة.
ثم أجاب تاي الله:

والله سؤال في وزنو حكمة.
الساقية ما بتقوم بالحجر فقط، بتقوم بالهمّة...وما دام في ناس ديل جاهزين يكتبوا، ويزرعوا، ويحبّوا الأرض...أظن الساقية الثانية بقت قريبة من النور... لأن كل شيء بدأ بدعاء الأم، وستار أم سترين.

نظر الفريق إلى بعضهم البعض –قد تبدو الرواية مكتملة، لكن الحياة تقول: أكملي، وسترين.
قد اكتمل التحوّل من رواية مكتوبة إلى حكاية ناطقة، ومن مشروع صغير إلى فكرة إنسانية كبيرة تعبر البلاد والقلوب
.

📖الفصل الثامن والثلاثون

دعوة إلى باريس... وصوتٌ يسأل: من سيتكلم باسم الساقية؟

مطلع الفصل: ما بين صوتٍ وادعٍ خرج من قريةٍ صغيرة، وصدىً عالمي ينتظر التحاور مع هذا الصوت، تنكشف قوة الحكايات التي تُروى من جذر الوعي، لا من سطح الكلام.

صباح الجمعة، وقبل شروق الشمس، جاء البريد الإلكتروني الرسمي من **لجنة مجتمع المعرفة في اليونسكو – باريس.**

كُتب فيه:

نتشرف بدعوتكم للحضور والمشاركة في الجلسة الدولية بعنوان:

"السرد الريفي وإحياء الوعي المجتمعي في سياق التنمية الثقافية"

والتي ستنعقد في مبنى اليونسكو الرئيسي بتاريخ 28 ديسمبر،

وذلك لمناقشة تجربتكم الرائدة "الساقية تمشي وتغنّي."

نرجو ترشيح ممثل واحد عن فريقكم لعرض الجلسة.

لما قرأ الفريق الرسالة، ساد صمتٌ مليءٌ بالرهبة والفرح في آنٍ واحد.

كان السؤال الأوّل الذي خرج من فم السِّرة، كأنه ثِقْلٌ خرج من الحنجرة:

من يسافر؟... باسم مَن تُقدّم الحكاية؟ باسم المشروع، ولا باسم أم حجل، ولا باسم كل الساقيات اللي مشت؟

أجاب تاي الله، وهو يرفع رأسه بثقة ديناميكية:

ما مهم اسم الزول...المهم صوت الحكاية يطلع نضيف...لو السِّرة مشَت، هي صوت الأرض والكتابة...ولو الزين مشى، بيشرح العقل البشري والمشروع التقني...ولو أنا مشيت... أكون شاهدًا على الساقية...وكلنا بكون مشينا بروح أم سترين....

السِّرة أمام المرآة — حوار داخلي ثقيل

جلست السِّرة في غرفتها مساءً، تنظر إلى وجهها في المرآة، وفي قلبها سؤال خفي:

لو مشيت باريس...هل أمثل نفسي؟ ولا أمثل جدتي "ستيرة"؟
ولا أمثل الصوت الذي لم يكتبه أحد... إلا لما قاعدت جنبه؟
ومن يضمن أني أتكلم بوعي الرواية لا بنبض الذات؟

فتحت دفترها، وكتبت:

أخاف أن أكون روايةً تمشي على قدمين، لا امرأة تمشي إلى اليونسكو.
فهل ما زال في القلب مكانٌ لأسئلتي؟
أم أنه آن أن أنطق بلا تردُّد؟«

طرق الزين باب غرفتها، وقال:

خلي بالك... الدعوة ما عايزة بروفيسور... عايزة روح...وأقولها ليك، لو أم حجل عندها صوت... فهي صوتك — اسمعيه قبل أن يسمعه الناس«

🎙️خاتمة اللقاء —— قرار المرحلة

في اجتماع حاسم جمع الفريق، قال **ود النمير**:

تم تأكيد مشاركتكم في الجلسة الدولية.
وسنتحمَّل نحن مصاريف السفر والمشاركة.
ويقيني... أنّ صوت السِّرة سيكون الأنسب في هذه المرحلة.
لأنّ رداءة الغربة تحتاج إلى من يحوّلها إلى نور... لا إلى شرح.

وقفت السِّرة، وقالت بصوت ثابت:

أذهب باسمنا كلنا... وباسم أم سترين، وباسم أم حجل، وباسم الساقية...لا ككاتبة فقط... بل كرسول للتراب الذي قال: "اسمعني، فأنا ذاكرةُ الحياة."

💡إشراقة: اقتراح الزين لمستقبل الرواية

بعد الاجتماع، همس الزين إلى السِّرة:

تعرفي؟ الكتاب دا لو طُبع... وإنتي اتكلمتي باسم القرية في العالم...
لازم نفتح فصل جديد اسمُه:
"الساقية الثالثة —— حين تمشي في الكون، لا في البلد فقط".
نكتب فيه: نصوص ما بعد المؤتمر، تسجيلات الصوت، الدعاء الجديد، والناس اللي جاوونا من بلاد ما كانت تحضر في خيالنا.

ابتسمت السِّرة وقالت:

لو كتبتُ هذا الفصل... سيكون بدايتُه دعاء:

"اللهم إن الحكاية عطاياك... فلا تحرمنا من إكمالها بالستر«

ومع هذا ينتهي الجزء الأول من »*أم سترين – من قرية أم حجل إلى بارقة أمل*:«

جزءٌ كتب عن الجذور، والغربة، والمشروع، والوعي، والساقية، والعلاقة بين الأرض والقلب والكتابة.

ثم يبدأ بعده «الفصل المفتوح» – فصلٌ يخرج من يد السرد، وينتقل إلى يد الحياة.

الخاتمة

لا نهاية للساقية...لأنها لا تعرف السكون.ولا نهاية للحكاية...
لأن الأرض تعيد كتابتها كلما مرّ عليها الغيم.

حين كتبنا هذه الرواية، لم نكن نبحث عن قصة مكتملة تختم أبوابها بإغلاق الفصل الأخير،بل كنا نسقي الحكاية من نبعٍ لا يجفّ، ونردّد ما قالته الحاجة ستيرة – أم سترين:

الساقية لو وقفت، ما وقفت بضُل...وقفت لأن أهلها نسوا الدعاء.

ولذا... تركنا آخر الصفحة بيضاء،لأنّ القادم ليس سطرًا، بل فكرة، وصوتًا، وزرعًا، ودمعة حنين،ولأنّ هناك من سيكتب بعدنا ما لم نكتبه نحن،ويقول عن الساقية ما لم تسعه الحروف.

في كل وجهٍ منكم، وفي كل أرضٍ تحنّ للغيمة الأولى...وفي كل غربةٍ تحمل في جيبها حبة تراب،تعيش «أم سترين»... بسترها ونورها، بحضنها وصمتها.

ولعل الله يكتب للفقراء والأغنياء طريقًا لا تغلقه الغربة،ولا تمزّقه السياسة،بل تفتحه الحكاية حين تكون يدًا، لا قلمًا.

وبذلك...لا نطوي الحكاية،وإنما نودِّع فصلها الأول،حتى تمشي الساقية الثانية...بكم... ولكم... ومنكم إلى الله.

❁حقوق الطبع والنشر❁

إصدار :إصدارات ود القبائل – الإمارات العربية المتحدة



محمد بشير محمد مصطفي

ودالقبائل

نبذة عن المؤلف

المؤهل العلمي

بكالوريوس في اللغة العربية والإعلام – جامعة الخرطوم، كلية الآداب، السودان.

العضويات المهنية

عضو الاتحاد العام للصحفيين السودانيين

عضو قيد التسجيل في اتحاد الصحفيين العرب

عضو اتحاد الصحفيين الأفارقة

أبرز أعماله الأدبية والفكرية

بوابة السر – رواية في فلسفة الوعي وكشف الذات.

نجمة الأسحار – رواية فانتازيا صوفية عن الصراع بين النور والظلام.

همسات المهيوبة – نصوص وجدانية وتأملات في أنوثة الروح.

فتح البصيرة ما بين التلذذ والحيرة (2025) – كتاب فلسفي وروحي في رحلة الوعي والتوازن.

سفر القلب بين الوجد والفقد – خواطر ومقامات في الحب والحنين الصوفي.

تجليات القلب العاشق – رحلة أدبية في معاني العشق الإلهي والتجلي الوجداني.

كما يواصل نشر مقالاته اليومية في سلسلة «وقفات تأمل» التي تتناول الإنسان والروح والحياة، ضمن مشروعه الإنساني والفكري الرامي إلى بناء وعي صادق ومتصل بالنور الداخلي.

شعار المؤلف: "ود القبائل – نبض الروح وكلمة الوعي"